الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

قرش	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٠ ‏— ١٥ صفر سنة ١٣٥٧ — ١٥ إبريل سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العـــدد

صفحة			
٢٩٠	بهيرة	من أقاصيص الحب فى عهد الرشيد	بقلم أحمد حسن الزيات .. ..
٢٩٤	ليلة الوداع	من التاريخ الاسلامى	بقلم الأستاذ على الطنطاوى .. ...
٣٠٤	فاسينوكين	للقصصى الفرنسى بلزاك	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...
٣١٥	الحب والقتل	للكاتب الفرنسى أرمان بيكير ...	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة .. ...
٣٢٦	راندا	من تاريخ الهند	بقلم الأستاذ محمد محمد مصطفى . ...
٣٣١	النافذة	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود خيرت بك ...
٣٣٥	حاجى بابا فى انكلترا	تأليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ..

من أقاصيص الحب في عصر الرشيد

بهيرة

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

— ما أجمل هذا الصوت ! من أين مصدره ؟

— من صوب النهر يا مولاى

— إن حلاوته وإيقاعه لينبئان عن ظرف بارع وصباً نضر

— لعلها قينة في زورق من زوارق المخنثين (١) ترف على لهوهم الماجن بالغناء والحسن كالعادة

— مل بنا إلى الشاطئ فلعلنا نرى مصداق ما نسمع

وكان الرجل الذى سأل وأمر طويلاً بدين الجسم أشقر اللحية على وجهه جلالة السلطان وعزة الملك ؛ أما رفيقه الذى أجاب وأطاع فكان مساوياً له فى العمر ، ولكنه كان ربعة القوام رقيق البدن أزهر اللون ، تتوسم الظرف من ملامحه ، وتتبين الذكاء من وراء لفظه . وكانا يلبسان ملابس التجار ويمشيان مشية المستطلع بين القصور الناعمة القائمة على دجلة من كرخ بغداد فى أصيل يوم من أيام أبريل . وعلى ثلاث خطوات منهما كان يسير رجل وثيق التركيب عظيم البسطة يلحظ لحظات الصقر ويرعاها بعين النسر . وكانت دار السلام يومئذ فى أيام العروس (٢) من عهد الرشيد ، قد تجمعت فيها الدنيا بهجتها وزينتها وفتنتها وثروتها ، فهى أشمة من الجمال والسحر ، وظلال من الرخاء والبشر ، ونسمات من الروح والعطر ، وأخيلة من الحب والشعر ، ومُتع من نعيم التمدن الإسلامى القائم على لذة الروح والجسم ، وسعادة الدين والدنيا ، وراحة النفس والناس

* * *

اتجه الرجلان وتابعهما الصامت نحو الصوت فجرهما إلى بستان مشرف على النهر قد جلست على عريش من عرائشه الكاسية بأشتات الرياحين والزهر جارية فى وفرة الجمال وزهرة العمر ترسل هذا اللحن الغزلى الشجى الضارع كأنما تهدهد به حباً لا يهجع ، وتناجى به حبيباً لا يسمع !

فدار بين أعظم الرجلين وبينها هذا الحوار الرقيق :

— لعلك تودين أن يكون لهذا الغناء الساحر سامع !

— لو كنت أوده لما عز علىّ أن أجده

— وهل خلق الله مثل هذا الصوت ليتبدد فى الهواء ويضيع فى هذه الخلوة ؟

— سل البلبل حين يبعث الشدو هل يبعثه إلى أذنك . وسل الشمس حين ترسل الضوء هل ترسله إلى عينك . وسل الزهرة حين تبث العطر هل تبثه لأنفك ؟

— تبارك الله ! براعة فى الغناء وبراعة فى

(١) كان يطلق هذا الاسم فى بغداد على أهل الترف واللهو والفتوة (٢) كان الناس يسمون عهد الرشيد لرغائه وجماله أيام العروس

الذكاء وبراعة فى الحسن ! ماذا تسمين ؟

— بهيرة

— ولمن تكونين ؟

— لسيدي على بن وهب

قالت ذلك بهيرة ثم حيت الرجل وصاحبيه وانطلقت بين أشجار البستان كأنها عروس من عرائس المروج ازدهاها الربيع فطفرت من المرح راكضة راقصة

— لقد وقعت بقلبي هذه الجارية يا جعفر

— إذا شاء أمير المؤمنين كانت فى ملكه من الغد

— ٢ —

وفى غد ذلك اليوم انتقلت بهيرة بالشراء إلى قصر الرشيد بالرصافة ، وكان يموج بالحور والولدان موجان الفردوس ، حتى بلغ ما فيه من السرارى والقيان زهاء ألفى جارية من الروميات والكرجيات والجركسيات والعربيات والحبشيات ، يرفلن فى الأفواف الموشاة بالذهب ، والعصائب المرصعة بالدر ، والمناطق المنسوجة من المسجد ؛ ويخطرن بين دوائر الحرم مَوائس من الدلال ، نشاوى من الحسن ، ينفحن بالفتون والحب كما تنفح الزهور العاشقة بالعطور المغرية فى ميمة الربيع ...

أحلها مسرور الخصى مقصورتها الأنيقة بين مقاصير سحر وضياء وخنث[1] وأفاض عليها من الوشى والزينة والحلى ماجعلها قطعة من الفن الجمالى الخيالى لا تبلغها قريحة شاعر ولا عبقرية مصور . وانغمرت بهيرة فى فيض الجمال والنور والترف واللذة ! ولكن هذا القصر الذى لا ثانى له فى دنيا الناس لم يستطع بما فيه من النعيم الدافق والسرور المتصل واللهو المختلف والأشجار المحمولة من كل أرض ، والأطيار المجلوبة من كل سماء ، والأواوين المنجدة بالديباج والإبريسم ، والبرك المزدانة بالتماثيل والدُّمَى ، والسلطان الذى خضع له الدنيا ، والجلال الذى اعتز به الدين ، لم يستطع بكل أولئك أن يمسح عن وجه بهيرة هذه الكآبة الغاشية ولا هذا السهوم الملح ؛ فقد كانت أشبه بالوردة المقطوفة على المائدة الغارقة فى السرور الطافحة باللذة : تذوى وتموت وكل ما حوالها يزدهى وينتعش . فهل كان قصر الخليفة أضيق من قصر التاجر ؟ أم كانت سيادة ابن وهب أندى على قلب بهيرة من سيادة الرشيد ؟ واقع الأمر أن هذه الحال لم تطرأ على بهيرة فى عيشها الجديد ، وإنما كانت تلازمها وهى فى ملك ابن وهب ، وقد تذرع هذا بالطب والحيلة واللهو إلى أن يرفه عن جاريته المحبوبة فما كانت تزداد على عنايته بها ورعايته لها إلا همًّا على هم ، حتى استراب فى حبها إياه فحاول أن يصل إلى سرها ويعرف متجه هواها فما استطاع . فلما ساومه النخاس عليها بالثمن الربيح نزل عنها غير آسٍ ولا آسف

كانت بهيرة قبل عامين قد وهبت قلبها الخالى المنتظر لفتى من سراة بغداد الظرفاء فشغله كله . تغلغل فيه تغلغل السر ، وشاع به شيوع السرور . ثم تقلبت عليهما الأيام والاحداث وهما ثملان من رحيق الحب ، وادعان فى ظل الأمان ، حتى نزل بالفتى ما ينزل بالمترفين المتبطلين من كساد الحال وهجوم الفاقة . فباع كل ما يملك . ثم عاش على الأمانى فترة

---

(١) هن بالخطايا الثلاث اللاتى استأثرن بهوى الرشيد حتى قال فيهن :

إن سحراً وضياء وخنث ... هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ... ثلثى قلبي وتربها الثلث

من الدهر ؛ ورأى آخر الأمر أن من الاخلاص لحبيبته ألا يحمّلها وزر إسرافه وعواقب طيشه ، فباعها على الرغم من تشبثها به وإيثارها إياه على ابن وهب

ودأب يزورها يوماً بعد يوم وهي في قصر ابن وهب من وراء الحديقة ومن خلال السوروهى تنتظره فى العريش الذى رآها فيه الخليفة يوم تنكّره ، فيتساقيان كئوس الهوى ، ويتناقلان حديث المنى ، ويتشاكيان حرقة الوجد ، وينظران نظرات الأسى المرير إلى دجلة والشباب الأحباب يشرقون على وجهه إشراق البسمة العذبة على ثغر السعيد ، فيذكران كيف كان هذا النهر الخالد مسرحاً لصباهما اللاهى ، وشاهداً على حبهما الخالص ؛ وكيف نظر إليها الدهر الخؤون فتقوض الربع الآهل ، وتفرق الشمل الجميع ، وآل الأمر بهما إلى أن يكون بين قلبيهما عاذل لا يُتَغفل ، وبين جسميهما حاجز لا يُقتحم

كانت بهيرة وهى فى قصر ابن وهب تستطيع أن ترى سليمان وأن تتحدث إليه وأن تترك الأقدار الرحيمة إسعاف حبيبها البائس بالثروة المرجوة فيستردها إلى ملكه ؛ ولكنها انتقلت الآن من عش الحمام إلى غيل الأسد ! فمن ذا الذى يستطيع الدنو من قصر الخلافة ؟ لقد ضرب الدهر بينها وبين حبيبها إلى الأبد ؛ فلا هو يستطيع إليها الدخول ولا هى تستطيع إليه الخروج ؛ فكأنه مات من دنياها وماتت من دنياه . وبيت الخلافة لأمثالها قصر فى الأول وقبر فى الآخر !

— ٣ —

على أن الهوى كالسكر لا يعرف المحال ولا يحس الخوف ولا يبصر العاقبة . فقد احتال سليمان حتى ظفر بثياب خادم من خدام جعفر بن يحيى . فكان يدخل قصر الرشيد فى هذا الزى فلا يرتاب فيه الحراس ولا ينكره الخدم . وعرف مقصورة بهيرة فكان يتسلل إليها فى الظلام أو فى الغفلة ، فيقضى معها ساعة من النهار أو هزيعاً من الليل ينضحان فيه غرامهما المسعور بالحديث المعسول والقبَل الندية

وفى ذات ليلة طغى عليهما الحب وعصفت برأسيهما الصبابة فتولدت فيهما ناشئة من الأمل والعزم . قال سليمان وهو يثبت نظره المتوقد فى نظر بهيرة الساجى :

— لقد أعددت عدة الخلاص ومهدت لك سبيل الهرب

— وماذا أعددت يا سليمان ؟

— أعددت لك هذا الثوب الغلامى فالبسيه واخرجى تحت الليل حين تخشع الأصوات وتهجع العيون ولا يدخل ولا يخرج إلا رسل الأسرار بين قصور السادة والقادة . وسأكون فى انتظارك لدى مشرع القصب من دجلة

فقالت بهيرة ودمعها الساجم يتقاطر على خديها تقاطر الطل :

— أنسيت يا سليمان أنى ملك الخليفة فلا أخرج منه إلا بالبيع أو بالعتق !

— لم أنس يا بهيرة ، ولكن الخلاص بغير ذلك محال

— وكيف يصفو لنا العيش يا سليمان وهو شقاء متصل بمعصية الله وخيانة الخليفة ؟

— بربك يا بهيرة أخفتى هذا الصوت فى نفسك ، وفكرى قليلاً فى بؤسى وبؤسك . ليس لى غيرك وليس لك غيرى ؛ أما الخليفة فله ألفا جارية ، وله أضعافهن إذا شاء . والله يا بهيرة يغفر الذنوب جميعاً

— ألا تظن يا سليمان أن العذاب فى الحب عذب ، والموت فى سبيله شهادة ، وأن هذه الساعة

التي نلتقي فيها على غفلة من الرقيب بين الخوف والأمن ، وبين اليأس والرجاء ، أدنى إلى الحب الصحيح والسعادة الحق من العيش الغرير الناعم على مهاد الرذيلة ؟

— أطيعي الهوى يا بهيرة واعصي العقل . فان العشاق لا يعيشون بعقول الخليين ولا يخضعون لقوانين المجتمع

وأسلس لسليمان الدمع والكلام فأوشك أن يحمل بهيرة على رأيه لولا أن قرع باب المقصورة قارع عنيف ، فاستطير قلب العاشقين من الرعب ، وأيقنا بالهلاك المحتم

وفتح الباب ودخل مسرور قهرمان القصر وسيد الموالي وحاجب الرشيد ، ومعه نفر من الحراس ، فأمر بالقبض على سليمان ، وكان قد سمع بآذان جواسيسه ما دار من الحديث بينه وبين بهيرة

— ٤ —

سيق العاشقان إلى مجلس الخليفة الخاص متهمين بانتهاك حرم الخلافة والمؤامرة على الفرار والخلوة الأثيمة . فسألهما عن جلية الخبر فأجاباه بصحته ، واستفهم الشهود عن تفصيل الحديث فأدلوا به على نصه . وكان الخليفة مفتوناً ببهيرة لما جرّب عليها من الوفاء والذكاء والصدق فعفا عنها ، ودفع بسليمان إلى مسرور ينفذ فيه حكمه

فتقبل العاشق المنكود الحكم عليه قبول من راض نفسه على التسليم بالقضاء المحتوم والأمر الواقع . وذهب به الموالي إلى لقاء الموت ، ولبثت بهيرة في حضرة الخليفة شاخصة لا تطرف ، واجمة لا تنطق ، كأنما أخرجها الجمود عن الحياة ، وفصلها الذهول عن الوعي . ثم رأرأت بعينيها في سكون ، وحركت لسانها ببطء ، وألقت بنفسها على قدمي الخليفة وهي تقول : مولاي : إني أعلم أن الجريمة إذا مست الشرف ضاق بها العفو وقصُرت عنها الشفاعة ؛ ولكني أعلم كذلك أن حلمك لا يستخفه غضب وعفوك لا يتعاظمه ذنب . فهب لي دم سليمان فقد جنى عليه حبي ، وسعى إلى عدمه وجودي . وهو يا مولاي بريء الساحة صادق النية سري الخلق

فقال لها الخليفة : إن هذه الجريمة تُنسي بوجهها الوقاح صورة الرحمة . فاسأليني ما شئت إلا العفو ، فاني لا أمنح إلا ما أملك .

فقالت بهيرة : إذن تعدني يا مولاي ألا يُقتل حتى أراه .

فقال لها الخليفة : لك هذا الوعد .

وأرسل وراء الجلاد يأمره أن يرد عليه سليمان قبل أن يمضي قضاءه فيه .

فلما خرج الرسول أدارت بهيرة بصرها في السماء والفضاء والطبيعة ، ثم أرجعته وهو يفيض بالدمع والأسى ، ورددته في نواحي البستان ، وفي جوانب المكان ، وفي مرايا الجدران ، وفي حلتها الذهبية ، وفي حليتها اللؤلؤية ، وفي وجه الخليفة ؛ ثم أدخلت إصبعيها في محجريها فاقتلعت بهما عينيها

فصاح بها الخليفة وقد أفزعه ما رأى :

— ويحك ماذا صنعت بنفسك ؟

— فديت بعينيّ حبيبي يا مولاي

— وكيف ذلك يا حمقاء ؟

— ألست وعدتني يا مولاي ألا يُقتل حتى أراه ؟ فالآن لا أراه ولا يُقتل !

* * *

كان أثر هذا الحادث بالغاً في نفس الخليفة ، فبسط على العاشقين جناح رحمته ، ومهد لهما الحياة السعيدة في ظلال نعمته . وقنعت الغادية العمياء من دنياها بالعيش على نور الحب وفي كنف الحبيب !

الزيات

من التاريخ الإسلامي

ليلة الوداع

للأستاذ علي الطنطاوي

وفي نهار الاثنين ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٣ للهجرة ...

وخلف مكة وهي ثكلى ملتاعة ، محطمة القلب ، مخلعة الأضلاع ، قد غرقت في دماء أبنائها الذين ضربتهم يد الدهر ففرقت جمعهم ، وشتت شملهم ، فراحوا فريق مصرّعون على أرض الحرم ... وفريق تحت رايات أميّة قد أرمضتهم هذه الحرب الطويلة التي حملوا عناءها ، وقاسوا لأواءها سبعة أشهر لم تدع لهم أخضر ولا يابساً ، فتسللوا من مكة لواذاً ، ثم تسلقوا هذه الجلاميد التي انتشرت عليها جيوش أمية الغازية ، فاستسلموا إليها وأخذوا لأنفسهم أماناً ثم كانوا عوناً لها وجنداً فيها ؛ وفريق أقاموا على الولاء لابن الزبير ، يذكرون من مات من أهليهم فيغصّون بالماء حزناً وألماً . ويذكرون من فرّ من إخوانهم فيوارون وجوههم حياء وخجلاً ، ثم إنهم ينتظرون الموت بين كل لحظة وأختها ، ويعيشون خائفين في مقام ابراهيم (ومن دَخَلَهُ كان آمناً !)

وألقى الليل غلائله السود على هذه المدينة التي عضتها الحرب بنابها وأصابتها بأوصابها ، فباتت تتنفس الصعداء من شدّة يوم قاس عبوس تحالفت فيه الطبيعة العاتية والبشرية الطاغية ، على حرب هذا البلد الحرام ، فلم يكن ينجو من حجارة المنجنيق إلا إلى شر الصواعق ، فكأن الطبيعة قد شمرت عن ساقها للقتال ، فهي ترمي المهاجمين والدافعين والآمنين من صواعقها ورجومها بشواظ من نار تصيب به الدور والمنازل فتدعها قاعاً صفصفاً كأن لم تغن بالأمس .

والحجاج ما ينفك مجالداً مقارعاً يقذف بأحجار منجنيقه وجنادله بيت الله فيهدم جدران بيت الله ، ويرمي بيوت الناس فيهلك من بقي فيها من أشياخ عجز لا قبل لهم بالحرب وأهوالها ، وأطفال برءاء لا يد لهم في جرائرها وأوزارها ، فيختلط عويلهم وصراخهم بهزيم الرعود وزئير الطبيعة ، ثم تضيع هذه الموسيقى المروّعة في جلبة الانهدام ، ويخفي الغبار الثائر حول المنازل المهدودة هذا المشهد المرعب لحظة من زمان ، ثم ينجلي فإذا التراب قد حوى كل شيء ، وإذا المدينة العامرة المقدسة مقبرة من المقابر !

وامتد رواق الليل فنامت الطبيعة وكفت عن هياجها وجنونها ، وصفت السماء وأطلّ البدر من عليائها ونامت الحرب . وكانت يومئذ طفلة لم تستكمل ما تراه من شراستها ، ولم تنم أنيابها ولم يستطر شرّها كما استطار اليوم فغدت لا تنام ولا تنيم ، وكان في نفوس المتحاربين شرف ووفاء فاستراحوا وأراحوا ، ونام هؤلاء الأبطال المدافعون نوم الأسد في آجامها كما نام هذا الجيش الجرّار الذي امتد زحفه حتى صاقب أبواب الحرم .. سكن الليل وعم شوارع مكة المقفرة الخالية حيث كان جيش ابن الزبير يروح ويغدو بطبوله وراياته ، فطوت كف الردى

راياته وطبوله . وهذه الأوعار الصم التي انتشر عليها جيش الحجاج بكبريائه وعنفوانه ... عمها كلها صمت عميق وهدوء شامل ، فلا تسمع في ثناياه إلا صيحة حارس يتنقل شبحه خلال السواد ، أو صرخة جريح معذب ، ثم يعود السكون

* * *

نامت العيون ، واستسلم المتحاربون إلى سبات أعمى لا تبصر فيه مقلة حلم ، وأراق القمر عذوبته وهدوءه على هذه الجبال فبدت جميلة فتانة ، فجفا فراشه سيدُ الموقف ، وبطل الجيوش المظفرة وقائدها ، وانسلّ في خفية كيلا يشعر حرسه وأعوانه ، فجلس على باب الفسطاط يتأمل هذه السماء الصافية ، ويحدّق في النجوم المتوقدة المتلألئة ، فتفتح عليه باب الذكرى ، فيلج منه سالفات أيامه فيعيش فيها وينسم أريجها ... وحملته هذه النجوم إلى ذكرى بعيدة ، فأحس بأنها عزيزة عليه محببة إليه ، فطفق يتأمل صورة تلك الليلة [1] التي قضاها في الصحراء وحيداً فريداً قد هجر بلده وحياته ، ليقدم على بلد لا يعرفه وحياة لا عهد له بها ، ويستعيد خواطره التي كانت تعتاج في نفسه ، وذهب إلى أبعد من ذلك فذكر أيامه في تلك الأعالي الباذخة ، حين كان معلماً لصبيان الطائف ، وأمانيه التي لم يكن يأنس إلا إليها والتي يحاول أبداً أن يستشف خيالها من وراء حجاب الغيب ... واستمرأ بقايا تلك اللذة التي أحس بها وهو خارج من دار (مستشار الدولة) روح بن زنباع وقد قلده شارة الشرطة ، فكانت عنده أكبر من شارة الخلافة ... أين ذلك الشرطي من قائد الخميس العرمرم الذي ترك جنات الشام الألفاف وسهوله الفيح ، وأبى أن يقطف ثمرة النصر وأزاهر المجد إلا من جلاميد مكة وصخورها ، فأمّ بزحفه رءوس الجبال ، ثم هبط نحو مكة ، يستذري براية الظفر ، حتى امتد بزحفه هذا الذي كان يحسبه مجيداً إلى أبواب الحرم ...

وألقى نظرة القائد الشاب (ابن السبع والعشرين) على الحرم فرأى الكعبة ، وقد أضاءها القمر بشعاعه الكابي ، فبدت مهدّمة مصدّعة الجدران رهيبة ، فراعه ذلك وأخافه ، وعراه ارتجاف شديد هزّ كيانه كله ، فعاف ذكرياته وأعرض عن المجد والأماني ، ولم يبق في فكره إلا صورة بيت الله المهدّم تظل ماثلة له بعد أن أغمض عينيه عنها ، فيحس بأنها تثقل على قلبه حتى لتكاد تسحقه سحقاً ؛ ويكبر هذا الذي أقدم عليه وتملأ نفسه خشية الله ، فيندم ويشتد به الندم ... ثم يذكر وعده الذي وعده للخليفة ، أن يقضي على ابن الزبير . ويعيد إلى الدولة سلامتها ووحدتها ، ويشعره جلال هذه الغاية وسموّها استصغار ما أتى ، ويذهب يلتمس لنفسه المعاذير

أليست وحدة المسلمين وسلامة دولتهم دعامة حياتهم ورأس دينهم الذي قام على توحيد الخالق ، ووحدة المؤمنين ؟ أليس ضمان هذه الوحدة من واجبات الخليفة ؟ وما ذنبه هو إذا أمره عبد الملك بضرب الكعبة لتحقيق الوحدة ، وما هو إلاّ جندي في طاعة عبد الملك ؟ بل ما ذنب عبد الملك وهو أمير المؤمنين المسئول عن مصالح المسلمين وسلامة دولتهم ؟ أيدع المملكة شطرين يعبث فيها المفسدون ويهلكها الخلف ؟ وأي جسم يعيش إذا انقسم جسمين ، وغدا قطعتين ؟ أوليس على عبد الملك أن ينقذ المسلمين من هذا الخلاف ولو دفع ثمنه حياة ابن الزبير وسلامة حصونه وقلاعه ؟ فما ذنب عبد الملك

(١) راجع قصة (هجرة معلم) في العدد الممتاز من الرسالة

إذا اتخذ ابن الزبير بيت الله حصناً له واحتمى به ، واستغل حرمته ؟ ... أمن حق البيت الحرام على عبد الملك أن يدعه آمناً فى ظله ، يدّعى مُلكاً وينشر راية ويتخذ جيشاً ، فيلتقى فى مشعر الحج ملكان مسلمان ، ورايتان وجيشان ، ويأبى الله والاسلام إلا راية واحدة لجيش واحد يسيره خليفة واحد ؟ أولم يكن أخلق بابن الزبير لو جنب بيت الله أوحال الدنيا وأوضار المطامع وخرج بجيشه إلى الحلّ ؟

وانطلق القائد الشاب يفكر فى ابن الزبير وعبد الملك ، ويعود به الفكر إلى رحلته الأولى يوم صافح سمعه للمرة الأولى اسم ابن الزبير ، فإذا هو اسم ضخم مجلجل وإذا هو ينطوى على السيادة والظفر ، والملك الواسع الذي يظل ثلاثة أرباع البلاد الاسلامية ، وإذا اسم عبدالملك ضاو هزيل ، فازال هذا يضخم ويعظم ، وما فتئ ذاك يهزل ويضؤل ، حتى انتزع عبد الملك الذى كان قابعاً فى زاوية قصره فى الشام ينتظر أن يغلبه عليه ابن الزبير — انتزع العراقين والحجاز ، ونازل عبد الله فى قرارة داره ودارة ملكه . أليس هذا دليلاً قاطعاً على أن ابن مروان أحق بالخلافة من ابن الزبير ، وأقدر عليها وأولى بها ؟

وأفلتت منه نظرة فوقعت على الكعبة ، فأعادت صورتها الرهيبة إلى صدره ، وأحس بوجل شديد ؛ فذكر تهيّبه الإقبال عليها ، إذ كانت مثابة الأمن ودار السلام ، منذ الزمان الذى يضيع أوله فى طفولة البشرية ؛ وذكر كيف فزع جنده وأحجموا ، فشد من عزائمهم ، وهوّن الأمر عليهم ؛ وكيف عبست السماء وبسرت حين شرعوا بتسديد الرماية إلى صدر الكعبة ، وألقت برجومها وصواعقها ، فقتلت منهم مقتلة ، فارتدوا وامتنعوا ، وظنوا أن الله مهلكهم كما أهلك الأمم من قبلهم ، فانصدعت قلوبهم وطارت نفوسهم شعاعاً ، فقام فيهم يطمئنهم ويهديهم :

— (أنا ابن تهامة ، وهذه صواعقها[1]) فلا تخافوا ولا تراعوا

سنة الله التى لا تبديل لها ، وقوانينه فى كونه لا تعنيها أمور البشر ولا تبدلها حوادث الأرض ، وما قيمة جند الشام حتى يدع الفلك من أجلهم سيره ، وتخرج الطبيعة عن سننها وتخالف طريقها ؟ وانطلق يحدثهم حديث رسول الله ومعلم العالم حين استأثر الله بابنه إبراهيم فكسفت الشمس فظنوا أنها كسفت لموته ، فنبأهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينمنهما موت أحد ولا حياته ...

فاطمأن الجند وعادوا إلى تسديد الرماية وضرب الكعبة ، فمادت السماء إلى زمجرتها وزئيرها ، وانقضت صواعقها ، ولكنها أصابت من جند ابن الزبير مثل الذى أصابت من عسكر الشام ؛ فأمن الجند وأقبلوا يوالون قذف الحجارة ...

إنه لم يضرب الكعبة على أنها بيت الله ، ولكن ضربها على أنها قلعة من قلاع ابن الزبير ؛ ولم يقدم مكة فاتحاً ، ولكن قدمها حاجّاً محرماً ؛ وحج بالناس ولكنه لم يطف . . . ولم يكن له إلا الوحدة الإسلامية غاية ، فهو يعلم أن المسلمين كرجل واحد ، فأي رجل هذا الذى له رأسان .. ؟

ولقد نهاه فقيه العصر وإمامه (عبد الله بن عمر) أن يضرب الكعبة فيؤذى الطائفين بها ويعطل مناسك الحج ، وشدد عليه فى النهى ، فأطاع وامتنع وترك الناس وحجهم ، حتى إذا استكملوا مناسكه وفرغوا من عبادتهم ، نادى فيهم بالرحيل إلى بلدانهم وعاد يحارب ابن الزبير ...

(١) هذه الجملة من التاريخ

وسكن الحجّاج إلى هذه النتيجة التي انتهى إليها ، واقتنع بأنه لم يأت منكراً ... فعاد يتأمل هذه النجوم الصافية ، وهو عازم على بناء الكعبة ، وسد هذا الخرق الذي خرقه ، وإصلاح ما أفسدته الحرب ؛ وراح يحدق في القمم الشاهقة التي تلوح له عن بعد ذائبة أعاليها في الشعاع الفاتن الذي يسيل من صفحة القمر ... فذكرته كرة أخرى بيته ومدرسته وقريته الصغيرة فأحس كأن قلبه ينازعه إلى أيامه التي سلخهن فيها ...

— سلاماً أيتها الأرض الضائعة في طريق السماء ... لقد وفيت لك بنذري ، فقدت إليك المجد ووهبت لاسمك الظفر . وخرجت منك معلم صبيان ولكني عدت إليك قائد الجيش المرمرم ، فثبّتُّ اسمك على صفحات البطولة ، فلا يذكر التاريخ عودة الوحدة الإسلامية إلا ذكر معها (الطائف) !

ثم استغرق في تأمل عميق ...

***

في تلك الساعة كانت تهدف في طرقات مكة الخالية ، عجوز طويلة ؛ لا تبالي هذا الظلام الثقيل الذي يحف بها ، لأن عينيها المنطفئتين قد ألفتا هذا الظلام منذ أمد طويل ... وكانت تؤم منزلاً من هذه المنازل المقفرة ، فتمضي إليه قُدُماً كأنما هي قد ألفت طريقه ، وحفظته بذاكرة قدميها لكثرة ما تتردد عليه في الصباح والمساء ، فهي تتخطى هذه الأنقاض ، وتدور حول الجدر ، لم تقف حتى غيبتها مداخل المنزل المهجور ، فقبعت في زاوية من زواياه جامدة لا تتحرك ولا تهمس ، كأنما هي بعض أثاثه القديم الهرم الذي تركه أصحابه زهداً فيه ... وجعلت تجيل عينيها الهامدتين في أرجاء عالم مجهول ، فيبدو لها مترعاً بالألوان الفتانة ، زاخراً بالصور البارعة ، فلا تمل التحديق فيه والتجوال في أرجائه ، تفتش عن هذه الفتاة التي عرفتها في سالفات أيامها ، فلا تلبث أن تجتلي خيالها فتطمئن إليه وتجد فيه صبابة نفسها وبلغة أمانيها ... وترى هذه الفتاة وقد أهديت إلى بعلها الذي خلا كيسه من المال ولكن نفسه فاضت بالحب ، فشاركته حبه وفقره ، وأقامت من نفسها أنيساً لنفسه وخادماً لبيته ، وسائساً لفرسه ، تلتقط لها النوى ثم تدقه ، وهي سعيدة هانئة تعيش لبيتها وزوجها الذي تنهل السعادة من نظراته وكلماته وتقبس الهناءة من حبه وإخلاصه . فاستراح قلبها إلى هذا الخيال الذي ترى ، وشعرت كأن دم الشباب قد عاد يجري في عروقها بحرارته وتوثبه وفورانه ، وأحست بالنور قد عاد يضيء في عينيها ؛ فاستقرت على شفتيها بسمة عريضة ، طفت صورتها على جبينها المجعد فأومض فيه بريق من السعادة خاطف ورجع إلى وجنتيها ظل من حمرة الشباب الآفل ، حتى لو أن إنساناً رآها في تلك الساعة لما رأى عجوزاً شمطاء عمياء ، ولكن فتاة في السابعة عشرة ...

ونفضت عنها العجوز غبار السنين المائة ، وانطلقت تعيش في بقايا ليلة من ليالي زواجها الحافلة بالغرام والنبل والسعادة ، فتصغي إلى أغاني الحب تبعث همساً من فم ذلك الزوج المعمود ، وتذوق بين ثناياها حلاوة قبلاته المعسولة وتسمع بأذنيها وسوستها الناعمة . وتبالغ في التخيل ، فتمد يديها تعانقه وتخفي وجهها في صدره العريض وتلقي برأسها على قلبه الكبير الخافق الذي يخفق أبداً للحب والمجد والايمان ... ولكن برودة الحجر الذي ألقت عليه رأسها أطفأت جذوة أحلامها ، وردتها إلى حاضرها ، فاذا هو ينشر أكفان الموت على مسراتها ومباهج حياتها الماضية فتنسى كيف استقادت إليها

السعادة كاملة على يد هذا الزوج الذى تبعثه الدنيا حين تبيع دين محمد فغدا يحمل على ألف فرس فى سبيل الله بعد أن كان ماله كله فرساً تعلفها زوجه النوى . وتغيب صور هذا الماضى فى الليل السرمدى الذى غمر حياتها وأترعها بالآلام والأوجاع فتمنت لو أنها ماتت وهى بنت الخليفة العبقرى ، الذى صحب رسول الله وخلفه فى أمته . ووقف وحده حين كانت الردة فى وجه الناس كلهم . ثم ظفر بهم وساق المرتدين عن دين محمد ليقاتلوا فى الشام والعراق تحت راية محمد . . . أو لو ماتت وهى زوج البطل الذى ملأ حياته بطولة وشرفاً ومجداً ثم ذهب فمات فى ساحة الشرف والبطولة والمجد ، أو لو ماتت وهى أم الخليفة الذى عنت له الحجاز والجزيرة والعراق وخراسان . . . وكاد يدخل دمشق مظفراً منصوراً ... فضاع منه كل شىء ، حتى كادت أمية تدخل عليه مكة مظفرة منصورة واستيأست من طلوع الفجر الذى يزيح ظلمة هذا الليل فانطلقت تناجى الموت وتدعوه بأحب الأسماء وأجملها ، وأذكرها الموت أحبتها الذين طواهم فى أحشائه ، فاشتهت قرب الأحبة — وكان من أقوى رغباتها فى هذه الليلة أن تقف على قبر أبيها الذى يجاور أشرف بقعة فى ملكوت الله الواسع فى الغرفة الصغيرة التى بنيت من الحجر والطين وسعف النخل فى المشايا الأولى لاستقرار الاسلام فى يثرب ، فكانت مقر أختها الصغيرة ، أحب زوجات الرسول إليه وأفضل أمهات المؤمنين وعالمة النساء ومعلمة الرجال . ثم كانت مهبط الوحى وصلة الأرض بالسماء ، ثم كانت دار الحكومة ، فيها نظمت خطط الحروب ، وأعدت قوانين المجتمع ، وعقدت مجالس الشورى ، ومنها خرجت الكتب إلى شيرويه ملك الفرس كسرى شاهنشاه .. وهراقليوس قاهر كسرى وسيد الدنيا في عصره ، ثم خرجت الجيوش لتمحو ملك شاهنشاه ، وتخلف سيد الدنيا فى أرضه وتسود بأسلابه ، وفيها عاش النبي صلى الله عليه وسلم حياته حتى إذا مات دفن فيها . ثم أغلق بابها لا إلى سنة ولا إلى عشر ولكن إلى ... يوم القيامة . وكان من أمتع أمانيها هذه الليلة أن تقف على قبر زوجها الماثل فى آخر البادية . في الزاوية التى تلتقى فيها بادية العرب بسواد العراق ، ببساتين العجم ... بالبحر ! فتجدد بزيارته عهد الماضى ...

* * *

وكانت تتناهى إليها بين كل آونة وأخرى صرخة من صرخات الحراس ، أو أنة من أنات الجرحى . فتردها إلى وعيها فتتأمل هذه الشماعة الواحدة التى بقيت لها من شمس حياتها الآفلة ابنها عبد الله الذى تجد فيه عبق غرامها بزوجها ، وعطر الامجاد التى عاشت فيها والمعارك النبيلة التى شهدتها ، وتذكر فيه تاريخاً طويلا تلتقى حوادثه الكبيرة بهذا التاريخ الصغير الذى تحفظه لابنها ؛ وتنقلها الذكرى إلى هذا التاريخ ... فاذا هى فى دنيا قريش ، وإذا قريش فى حيرة وقلق . قد خابت وفشلت فى رد هذا السيل الأتىّ بأكفها الضعيفة . ورأت الاسلام ينتشر ويمتد ولا يثبت شىء أمامه فائتمرت بالنبى تقتله ... ولكنها لم تجده في بيته ، ولا تعلم أين هو ... لا يعلم أين هو إلا رجل فى مكة وامرأة . أما الرجل فعلىّ ، وأما المرأة فأسماء ... يا لروعة هذه الذكريات !

لقد كانت فى بيتها تمد اللحم لتحمله إلى رسول الله (فان رسول الله يعجبه اللحم (١)) وإذا بالملأ من قريش يدخلون عليها ، وهم يرعدون ويبرقون ، يزهون بكبريائهم الفارغة ، وعنفوانهم المزيف وثيابهم الزاهية

(١) جملة من التاريخ

فقال لها أبو جهل بلهجة حاول أن يجعلها نغمة عالية ، ولكنها جاءت أقرب إلى التصنع والاضحاك :

— أين أبوك ؟

— وما يدريني أين أبي ؟ لا أعلم ؟

فلم يترفع هذا السيد الذي عجز عن ردّ محمد ، عن أن يرفع يده على امرأة ... لقد لطمها لطمة أطارت قرطها ... ومدت العجوز يدها تتلمس أذنها على غير شعور منها ، ومسّت بيدها بطنها ، فقد كانت يومئذ حاملاً ... يالبطولة هذا السيد القرشي الذي يضرب امرأة حاملاً !

ثم استدار المشهد فإذا هي قد انطلقت من دنيا قريش الضيقة المحصورة ، إلى دنيا محمد الواسعة الفسيحة . لقد هاجرت تقطع الصحاري والقفار ، حتى أشرفت على نخيل المدينة ، فوقفت على هذه الجنان الطاهرة ، الذي أسس فيها أول مسجد بني على تقوى ، فسمعت وحدها هذا النشيد العلوي ، الذي أصغت إليه الدنيا كلها من بعد ، والذي يتردد اليوم خمس مرات في كل نهار ، تتجاوب به المنائر في كافة أرجاء الأرض ...

وهنالك وسط هذا النشيد الذي يتألف من كلمتين اثنتين لم تعرف ألسنة البشر أقوى منهما هديراً ، وأشد في النفس تأثيراً ، هما : « الله أكبر » ! صاح البشير أن (أول مولود في الإسلام) قد استهل ، فانشرحت به صدور المسلمين حتى كأن كلّ واحد منهم كان أباه ، وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه وبارك عليه ، ودعا له ...

وتمثلت عبد الله وهو صبي يبايع رسول الله . ورسول الله يبتسم له ابتسامة تفيض بالحب والرضا ..

ورأته وقد شبّ حتى صار يلعب مع الصبيان في الطرقات . وإنه لفي لعبه وإذا بعمر القويّ المهيب يمرّ فيفرّ الصبية ويتوارون ، ويبقى عبد الله واقفاً ..

— لِمَ لَم تفرّ كما فروا ؟

— ولِمَ أفرّ وما أنت ظالم فأخشى ظلمك ، ولا أنا مذنب فأرهب عدلك ؟

فيعجب به عمر ، ويكبر جرأته وبلاغته ...

ثم تبصره وقد علا ، واستعلن أمره ، وضخم سلطانه ، فانقادت إليه الأمانيّ طيعة ، وتبعته الدنيا خاضعة ... ثم انهار هذا كله ... ثم انهار هذا كله ...

وراحت العجوز تحدّق بعينيها اللتين حرمتا النور في أفق مجهول ، وتفكر في غير وعي ، فقادها الفكر إلى دنيا تحبها وتألفها ، فإذا هي ترى كرة ثانية بداية هذا الصباح الذي غمر الكون ضوؤه ، وغسلت أنواره الأرض من أرجاس ليل طويل ماتت في ظلامه الفضائل والمُثُل . . .

وتفكر في قوة هذه الرسالة التي انتصرت على العالم كله ... وتري حاضرها الممض فتشجى وتتألم . ما أسرع ما نسى الناس هذه المبادئ وأجدبت نفوسهم منها ، وهذه أصلاد حراء ، وهذه جلاميد ثور ، لا تزال مخصبة مخضرة ... أفتكون هذه الحجارة وهذه الجلامد أوفى وأحفظ من قلوب البشر ؟ وإذا نسى الناس أفلا تذكرهم هذه الجبال الشاهقة التي شهدت عزلة محمد وإيواءه إليها ليالى بطولها يفكر في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ويفتش وراء مظاهر المادة عن مبدع المادة ... ثم شهدت منبثق الوحي ، وأشرف عليها هذا الفجر فأضاء جنادلها وصخورها ، قبل أن تسطع أنواره في السهول والقري . وسمعته وآمنت به قبل أن تسمعه ، هذه المدائن العظيمة المنثورة في الأرض ، أو لا تذكرهم ساحة الحرم ...

ومثلت لها (حين ذكرت ساحة الحرم) الكعبة

الهدمة ، فهالها أن يعبث المسلمون بحرمة الكعبة وهي التي كان المشركون على جهالتهم وكفرهم ، أكثر لها إجلالاً ، وأشد احتراماً ، وصبّت سخطها على ابنها وعلى الأمويين جميعاً

أيستحلون البلد الحرام ، في الشهر الحرام ، وينسون مبادئ الرسول ولما يمض على وفاته إلا ثلاث وستون سنة وينقضون عرى الأخوة بينهم ، ويقاتل بعضهم بعضاً في بطن مكة ؟ ولمه ؟ أو لم يبق في الأرض ظالمون ولا طغاة يقاتلونهم ؟ أينفض المسلمون أيديهم من هـذا الإرث العظيم ، ويهملونه حتى يبدو في عيونهم مجدباً ، وهو الذي بلغ من خصبه أن أترع أيام البشرية الماضية بالحياة ، وهو كفيل بأن يغمر أيامها الباقيات حياة ومجداً وفضيلة ؟

وآلمها من ضياع هذه المبادئ أكثر مما آلمها من خذلان ابنها وضياع عرشه ، بل هي قد نسيت ابنها ، ونسيت هـذا الملك الذي رتع في بحبوحته تسعة أعوام جاء يتجرع الآن مرارتها ، ونسيت ماضيها الآفل ، بل لقد نسيت نفسها وذهبت تفكر فيما هو أعز عليها من حاضرها وماضيها ، وابنها ونفسها ، في هذا المبدأ الذي أخلصت له ، إنه لا ينتصر هذا المبدأ وعلى الأمة والبيان يصطرعان ويقتتلان ، فلا بدّ من ذهاب أحدهما ، فاذا لم يذهب عبد الملك فليكن ابنها هو الذي يذهب ولتشتر حياة الأمة بحياة ابنها …

وكان عزماً خطيراً ، وكانت فكرة هائلة يرتجف لها أقوى القلوب ، ولكن قلب أسماء الذي يحمل قسطه من الإرث الأخلاقي الذي صهرته شمس هذه البلاد في الألوف المؤلفة من السنين وأنضجه الاسلام وهذبه لم يرتجف ولم يخف … كان همها أن تستريح هذه البلاد المقدسة ليلة آمنة — إثر نهار ملئ بالخطوب لتستيقظ مع الفجر قوية نشيطة . فتفئ إلى ظلال وحدة هانئة تستجم فيها ، وتفرغ لنفسها لتفرغ من بعد لأعدائها … ولكن العجوز عقلت لحظة عن عواطفها التي خنقتها في صدرها ، فانطلقت صارخة صاخبة ، فتصورت العجوز نفسها بعد عبد الله فلم تطق أن تتصور … وعادت إليها أنوثتها فعظم عليها أن تفرط بولدها الحبيب وهي على عتبة الموت وهو عمادها وعونها ، وحاضرها ومستقبلها وهو كل شيء لها ، وعادت تعرض ذكرياته مذ كان طفلاً إلى أن غدا شيخاً ، فتحس أن أمانيها كلها تختصرها ساعة تضم فيها ابنها إلى صدرها ، ثم تنسى نفسها وهي بين ذراعيه ، حتى تسلم الروح ، إنه حياتها وهو كل شيء لها … وراحت تبكي بعينيها المنطفئتين بكاء موجعاً

***

وفي تلك الساعة كان في الحرم طائفة من الناس تحت علم منصوب في ظل الكعبة ، أولئك هم بقية هذا الجيش اللجب الذي كان منتشراً بين أقصى خراسان والبحر الأحمر ، وهذا هو العلم الذي خفق على هذه البلدان تسعة أعوام كاملات … وليس أروع من الجيش القوي الظافر الذي يسدّ منافذ الفضاء ، ويحجب الشمس ، وتعنو له الشوامخ الراسيات ، وتميد بثقله الأرض ، إلا هذه الحفنة من الرجال الأشداء الصابرين ، الذين تخيرتهم شجاعتهم وعبقريتهم ، فكانوا بقية السيف ، وطرائد الموت ، ثم آثروا الموت أمجاداً على الاستسلام والهوان ، وتلك هي حال هـذه الطائفة من الناس

وكان في الجمع شيخ مستند إلى جدار الكعبة ، تومض شعوره البيض في شعاع القمر ، يفكر ، أو هو يبدو كالمفكر على حين يتجرع مرارة خيبة

قائلة ، ويحسّ من حوله زمهريراً بارداً ، فكان بحاجة إلى صدر دافئ ، يقبس من حرارته الحياة والأمل ، ولقد كان شيخاً فى الثمانين ، ولكنه لا يزال حيال أمه ذلك الطفل الذى يتمرغ فى أحضانها ثم يضطجع فيها ويرفع وجهه الصغير إلى وجهها ويقطف بعينيه ثمرات الحب الحلوة من عينيها الوادعتين ، ويمد أصابعه تعبث بوجهها وشعرها ...

وملأت نفس هذا الشيخ صورة أمه ، فنسى اليوم العصيب ، وغفل عن تصور النصر الذى أفلت منه كما يفلت الطائر الجميل من قفصه ، ثم يوغل فى مسارب السماء ، وخيبته التى جعلت حياته سوداء فارغة كظلام الليل ، ولم يعد يفكر إلا فى هذه الصورة التى أعارته من بهائها وسموها جناحين طار بهما إلى أيامه الخوالى فتغلغل فى رحابها الواسعة ...

... لم يبق له من صورة هذا الماضى العظيم — من عالم أبى بكر والزبير — إلا خط واحد ضعيف كاب ، يوشك أن تمدو عليه الأيام فتمحوه اليوم أو غداً ، لم يبق إلا ذات النطاقين أمه ، أسماء العظيمة التى كانت تاريخاً حيًا ، وكانت الفضيلة المجسّدة ، فانطلق إليها يودعها قبل أن يموت ، وكان الموت الشريف أجمل أمنية لهذا الشيخ البطل الذى خسر الملك والجيش ولكنه لم يخسر الشرف ولا العبقرية ؟ بيد أن هذا الشيخ يخشى أن يدع هذه العجوز تحمل معها آلام الثكل والوحدة ، حتى تبلغ بها قبرها القريب ... فكيف السبيل إلى إكراهها على التسليم به ، والرضا بموته ؟

* * *

وقام الشيخ من مجلسه يسلك هذه الطرق الموحشة التى سلكتها أمه فى الهزيع الأول من هذا الليل ، فلم يقف فى طريقه على الأطلال ، ولم يثره مشهد الملك الضائع ، لأن أفكاره كلها قد تعلقت بأمه ، فهو يحب أن يصل إليها ، فيمضى مسرعاً ، حتى إذا دنا من هذا المنزل المظلم الموحش تباطأ فى سيره ، حتى إذا بلغ بابه تهيب الدخول عليها وأحس بالعجز عن مواجهتها بعزمه ، وهو الذى لم يحس العجز عن مقابلة الخميس العرمرم ، ولم يشعر بالضعف عند مجابهة الشدائد والخطوب ، فوقف وأطال الوقوف ، وتقاذفته الأفكار حتى أحس كأن رأسه خلية نحل ... كيف يقول لها : دعينى أذهب إلى الموت ؟ وكيف يمسك قلبه أن يتخاذل ويضعف أمام بكائها وتوسلها إليه أن يبقى ، أن يبقى إلى جانبها فى أيامها الأخيرة ... ؟

كانت الأفكار تصطرع فى رأسه ، وهو هادئ ساكن لا يبدى حراكاً ، قد تعلق بصره بهذه العجوز القابعة فى الزاوية ينيرها شعاع ضئيل من أشعة القمر يسقط عليها من خروق السقف المتهدم ، وكانت أذنه مرهفة مائلة إليها فسمعها تردد اسمه فى خفوت ، بلهجة يقطر منها الحب والشوق واليأس والحزن ، فلم يتمالك نفسه هذا الشيخ أن صاح : أمى ! وألقى بنفسه بين ذراعيها ، فمرغ لحيته بوجهها ، وخلط أنفاسه بأنفاسها ونفسه بنفسها ، وغابا معاً فى حلم ممتع نشوان ...

ثم تنبهت العجوز ، وذكرت نذرها الذى نذرته للوحدة الإسلامية وعزمها الذى اعتزمته ، فخلصت من عناقه برفق وقالت له :

— ما جاء بك ؟

فحار فى جوابها ولم يدر كيف يعلن عزمه على الموت ، ثم آثر أن يرى ما عندها وقال لها :

— (يا أماه ، قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير من أصحابى ومن

ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ [١])

— أهذا ما جئت لأجله ؟ .. أجشمت نفسك عناء المسير فوق أنقاض المدينة المقدسة التى هدمتها وتركتها أطلالاً لتقول لى إنك جبنت وفقدت حميتك وشجاعتك ؟ أجئت تحتمى بصدرى من الموت الذى سقت إليه هذه الألوف المؤلفة من المسلمين ؟ أهذه هى خاتمتك يا ابن الزبير ويا من جده أبو بكر ، ويا من جده عبد المطلب ؟

ولم يكن عبد الله يتوقع أن يسمع منها ما سمع فطفق ينظر مشدوهاً يودّ أن يصيح من الفرح لأنها رضيت له بالموت فى معمعان المركة ، وذلك أقصى ما يريد ، ولكنه لا يدرى إلى أىّ غاية ترمى فيكتم صيحته ويصمت ...

— مالك يا عبد الله ، أنسيت أمجاد أبيك الذى يجرى دمه فى عروقك . . . فتعال قرب أحدثك بأمجاد أبيك :

فى عشية من عشايا الاسلام الأول خرج أبوك من بيته هذا ، فتنكب طريق الحرم حيث تمثل قريش بجبروتها وشركها ، وأمّ هذه الجبال القريبة يحمل فى نفسه بهاء هذا الدين الجديد فهو يحب أن يفىء إليه وأن يستمتع بمزلة هانئة ، فلم تكد تحتويه أعالى مكة حتى طرق أذنيه همس مرعب ارتجفت له أضلاعه ، واضطرب قلبه ، وأنساه غايته التى خرج من أجلها . لقد سمع أن محمداً قتل ، وانطفأت هذه الشعلة التى أضاءها الله ليقبس منها العالم ضياء نهار دائم ، وجفّ هذا الينبوع ووقف الاسلام الذى جاء للدنيا كلها من عند هؤلاء النفر القلائل الذين أسلموا ، وكان أبوك يعلم أن قريشاً التي قتلت محمداً ستمحو هؤلاء النفر وتبيدهم ، ولكن أباك لم يخف ولم يفرّ بل ثارت فى نفسه حماسته ؛ وصرخ فى عروقه دمه الذى يحمله ميراث عصور طويلة من النبل والشرف ، وتوثب إيمانه فى صدره وأشعره أنه يقدر بهذا الإيمان على العالم كله ، فسلّ أبوك سيفه ورجع يريد أن يثأر لمحمد فإذا محمد صلى الله عليه وسلم حىّ يبلغ دعوة ربه

فكان أبوك أول من سل سيفه فى سبيل الله ، فسطع من سيفه الوميض الأول لهذا الصباح الذى غمر الكون بالضياء الذى أشرق من سيوف المسلمين فى بدر وهوازن والقادسية واليرموك ونهاوند ...

أفلا يهز حماستك حديث أبيك ؟

فلم يجب عبد الله ، وآثر أن يظل ساكتاً فرجعت تقول :

— يا أسفى ، لم يعد يثيرك حديث أبيك ، فلن أحدثك عن أمجاده ... فهل تثير حماستك شجاعة جدتك صفية بنت عبد المطلب ؟ إنك تعرف حديثها ، وتروى خبرها مع حسان بن ثابت فى الحصن ... فهل أطفأت لذائذ الحياة لهيب الحماسة فى صدرك ، فأنت فى حاجة إلى قبس تقتبسه من امرأة ؟

فبرقت عينا الشيخ واشتعلت النار فى عروقه ، ولكنه أزمع السكوت لتمضى العجوز فى حديثها ، فآلمها أنه ساكت لا يجيب ، وحسبت سكوته جبناً وهلعاً ، فراحت تبالغ فى تحميسه ... قالت :

— أخبرنى ... أنسيت ذلك الدم الزكي الذى أهريق على عتبات المجد ؟ سرعان ما نسيت صورة مصعب ابن أبيك ، ذلك الذى عاف الشباب والمال والرفاهية ، وجفا عقيلتى قريش ، عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين . وذهب ليموت شريفاً مجيداً تحت راية الخليفة عبد الله بن الزبير

إذا كنت تعلم أنك تدعو إلى باطل ، فلم فرطت

(١) هذه الجملة من التاريخ

بهذه الأرواح ... هذه الألوف من الأرواح التى زهقت فى سبيلك ؟ أكان جنى هذه المعارك النبيلة أن يحمل الخليفة الذين ماتوا تحت رايته ، ليزدان به موكب الحجاج ؟

ما كان جدك أبو بكر ولا كان أبوك الزبير جباناً ولا رعديداً ، أفتنتمى إلى هؤلاء الذين أترعوا التاريخ بأحاديث المكارم ثم ترضى أن تساق وأنت شيخ أبيض اللحية إلى دمشق ، ليلعب بك جبانها وليشيروا إليك بأصابعهم ، يقولون : هذا الذى كان

ولم يعد عبد الله يملك صبره ، فصرخ :

أماه ! كفى ... إننى جئت أودعك ...

وألقى بنفسه بين ذراعيها ، فتحسسته فاذا هى بالدرع . قالت :

أتخدعنى يا عبد الله ؟ (ما هذا صنيع من يريد الموت (١))

قال : ما لبسته إلا لأجلك ، وما لى به من حاجة ...

ونزعه فألقاه ... ثم تملص من ذراعيها برفق :

— أماه ... وداعاً (ولا تدعى الدعاء لى ، فوالله ما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل محارمه ، وإنى مقتول فى يومى ، فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر إلى الله ، فإن ابنك لم يتعمد إيثار منكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به ... اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ولكني أقوله تعزية لأمى) (١)

وأسرع يخرج وأمه تدعو الله :

(اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب ، والظمأ فى هواجر مكة والمدينة وبره بأبيه وبى ، اللهم إنى قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت فأثبنى ثواب الصابرين الشاكرين)

وسكتت العجوز ، ومدت يديها تتلمس عبدالله لتودعه الوداع الأخير ، فلما أحست أنه قد ذهب ، ثارت أحزانها دفعة واحدة ، وهوت على الأرض

* * *

وأسدل الستار يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ للهجرة على هذا الشاب الذى هجر مدرسته وصبيانه ، ونزل من الطائف وحيداً شريداً فمهدت له عبقريته سبيل المجد ، ووطأت له أكناف العظمة ، فأعاد إلى الأمة الاسلامية وحدتها وسلامتها وبنى فى صرح أمجادها ركناً ضخماً ، ما كان أعظمه وأزهاه لو لم يلطخ بدماء الأبرياء ... وهذا الشيخ البطل الذى سمت به نفسه حتى صارع الخليفة فى الشام ثم صارعه حتى سلبه ملكه وسلطانه . ثم خسر كل ماربح ، ولكنه مات أشرف ميتة وأمجدها فكان موته مغلوباً ظفراً بارعاً ونصراً مؤزراً ... وهذه العجوز التى لم يعرف تاريخ بنات حواء من وقفت مثل موقفها أو ضحت مثل تضحيتها أو دانتها فى نبلها وشرف نفسها ، وإخلاصها لوطنها ودينها رحمة الله على الجميع !

علي الطنطاوى

منار الرشد

كتاب حديث يكشف عن أسرار الوجود ويشرح الحقائق ويرى القارىء الروح ويعرفه بالله لمؤلفه ابراهيم السيد بشارع كنيسة الراهبات نمرة ٣١ ويباع فى المكاتب الشهيرة

(١) هذا هو النص التاريخى

فاسينوكين

للقصصي الفرنسي أونوريه دي بلزاك

بقلم الأستاذ ذريني خشبة

حدث أنى كنت أسكن مرة فى شارع صغير يسمى شارع لديجيير ، متفرع من شارع سانت أنطوان من ناحية النبع القريب من ميدان الباستيل ، وينتهى عند شارع السيريزاى . وكنت أقضى ليالىّ فى غرفتى الموحشة فوق السطح مكباً على كتبي مستغرقاً فى مذاكراتى ؛ كما كنت أقضى سحابة النهار فى مكتبة أورليان القريبة من مسكنى

وكنت آخذ نفسى بحياة التقشف والزهد ، وهى حياة لا محيص منها لكل عامل مجد ، فكنت أستكثر أن أخرج للنزهة المجردة فى البولڤار بوردون إذا ما صفا الجو واعتدل

ولم تكن قوة فى العالم تغرينى بالانصراف عما أخذت به نفسى من المطالعة والدرس ، إلا هذه القوة العجيبة التى كانت تبعث فىّ ميلاً غريباً إلى لون آخر من ألوان الدراسة يختلف أشد الاختلاف عن دراساتى . . . أما ما هو هذا فهو شغفى العميق بملاحظة أهل هذا الحى — فوبورج — ودرس أخلاقهم وطباعهم . ولم أكن أتأنق فى ملبسى بل كنت أبدو بينهم فى زى أهل الأعمال وسمتهم ؛ فكان ذلك يعيننى على الامتزاج بهم ؛ والانسجام كلما عادوا أدراجهم بعد الفراغ من العمل ، أو اجتمعوا لبعض شئونهم .

ومن هنا أصبحت قوة ملاحظتى لهم غريزة فى نفسى ، وملكة أنفذ بها إلى صميم أرواحهم ، وأتغلغل بواسطتها فى أدق شئونهم ، كما كان يتغلغل دراويش ألف ليلة وليلة بكلمات سحرية وتعاويذ يرددونها فى جوانح فرائسهم ودمائهم

وكنت كثيراً ما أقتفى أثر عامل عائد مع زوجته إلى بيته بعد الحادية عشرة مساء أو قبيل منتصف الليل ، بعد خروجهما من الأمبيجو كوميك لأسلى نفسى بالضرب وراءهما من البولڤاردي بونت أوشو إلى بولڤار بومارشيه

وكانوا يبدأون أحاديثهم عادة عما شاهدوا فى الملهى من التمثيل ، ثم يتدرجون من ذلك إلى أمورهم الخاصة . ولم يكن الأمهات يبالين أن يجذبن صغارهن ليلاحقوهن ، وهن يكلمن أزواجهن ، ويحسبن مصروفات اليوم التالى ... وهنا ترتفع شكواهن من غلاء أثمان البطاطس ، ومن طول الشتاء وارتفاع أسعار الوقود ، والمطلوب للخباز ومن إليه ... يتعاطون ذلك فى حوار بورجوازى ملىء بالصياح ، يشف عن طباعهم وطباعهن ، وغرائزهم المكبوتة وغرائزهن

وكنت أصغى إليهم فأحس كأنى أحدهم ... بل كنت أشعر كأنما أسمالهم على ظهرى ، ونعالهم المخصوفة تطقطق فى قدمى ، وبهم يجلجل فى صدري

* منزلة بلزاك فى الأدب الفرنسى كمنزلة دكنز فى الأدب الانكليزي . وهو من أقدر الكتاب على التصوير وتحليل المجرمين وخلجاتهم ، وهو يغلو فى ذلك حتى يحسبه القارئ من المتحطين ولاسيما حين يتناول الأدب المكشوف . وقد يشعر القارئ بملال من طول مقدماته لكنه حين يخلص إلى القصة يتنفس الصعداء . وأقصوصة فاسينوكين أحسن ما تمثل به أدب بلزاك ، ولهذا السبب اخترناها برغم ما فى مقدمتها من ألغاز . ولد بلزاك سنة ١٧٩٩ ومات سنة ١٨٥٠

وشكاواهم تتردد فى قلبى ، وأرواحهم تسرى فىَّ كما تنساب فيهم روحى

وعلى هذا النمط كانت أحاسيسنا كأحلام اليقظة ، تذوب معاً كما تذوب الشمعة تحت اللهب ، أسفاً على ما يصيب الانسان من ظلم أخيه الانسان ... وهكذا كنت أفرج عن نفسى بالانطلاق من دراساتى الخاصة إلى هذه الرياضة الذهنية التى كانت موهبة عظيمة منت بها السماء على ، فأصبحت لى بمثابة حاسة من البصر الروحانى ، كهذه الحاسة التى أرى بها الملموسات عن طريق عينىّ

على أنني حِرْت فى تعليل هذه النعمة الجديدة فلم أدر ما باعثها ، ولا القوة الغامضة التى تصدر عنها ؛ وكان أكبر ما يخيفنى منها أن تكون إحدى هذه القوى الكامنة التى تنتهى إلى الجنون حين يُساء تصريفها . ولم أحاول استكناه هذه القوة ، وكان بحسبي أننى أمتلكها ، وأننى أذللها لمآربى ... وكفى ؟

ومما يجدر بى أن أشير إليه هو أنى كنت قد بدأت فى تلك الأيام تحليل الكتلة البشرية الهائلة إلى عناصرها الأساسية ، وتقدير ما فى هذه العناصر من خير ومن شر . وكانت هذه الضاحية التى اخترت مسكنى فيها أحسن حقل لاستنبات تجاربى واستنباط قوانينى ، فقد كان يعيش فيها الأبطال والمخترعون والعلماء الأعلام ، جنباً إلى جنب مع الأوشاب والرعاع والهمج ؛ وكانت الفضيلة فى أسمى مدارجها ، تختلط بالرذيلة فى أحط دركاتها ؛ وكان الفقر يكتم أنفاس الجميع ، والحاجة تهيمن على الأقدار والكرامات ، والخمر هى طبيب الكل ، والنفوس الثائرة المشبوبة تتبدد فى جحيم من الألم والعوز

لله كم ألف مأساةٍ وألف فجيعة كانت تمثل صامتةً فى ظلمات هذا البلد البائس المكتئب ! ولله كم ألف حسناء وألف قلب مضطرب لا يستطيع أحد أن ينفذ إلى أغواره ليطلع على المعجب العاجب من مضاحكه ومآسيه ثمة ! !

ما أشد جهلنا بقصص الحياة فى هذا الحى ، تلك القصص التى لا تصلنا روائعها إلا بطريق المصدفة ، وبلا اتفاق !

على أننى لست أدرى كيف احتفظت بقصتى التالية كل هذا الزمان الطويل دون أن أنشرها على الناس ! ربما كان هذا لكونها من الصفحات العجيبة التى تظل مطوية فى ذاكرة المرء حتى تخرج منها بطريق الصدفة ، كما تخرج (النمرة) الرابحة من صندوق النصيب ... وكم فى الذاكرة من أمثال تلك القصة ، وستظل مختبئة تحت مثاها ، حتى يأتى دورها فلا يكون بد من خروجها منها كما خرجت

* * *

كنت أستأجر امرأة مسكينة كانت تحضر إلىّ صبيحة كل يوم لتنهض بشئون غرفتى ، فتصلح سريرى وتمسح حذائى ، وتنفض ملابسى ، ثم تعد فطورى ؛ وتذهب بعد ذلك إلى مصنع قريب كانت تعمل به فى إدارة آلة لقاء عشرة صلديات فى اليوم فى حين كنت أدفع أنا لها أربعة فرنكات شهرياً . وكان لها زوج فقير يصنع صناديق الدمام فيحصل منها على أربعة فرنكات يومياً ، وذلك هو الذى اضطر زوجته إلى العمل ليعولا نفسيهما وأبناءهما الثلاثة ويعيشا عيشة بين الرخاء وبين الكفاف

ومع ما كانا فيه من ذلك الضيق فانى لم أر مثلهما أمانة وعفاف يد . ومما أذكره لهما بخير هو وفاؤهما وحبهما لى . ففى الخمس السنوات التى تركت فيهن مسكنى ، كانت الأم ڤيلان تحضر إلىّ كل عام فى يوم ميلادى حاملة باقة من الورد ، وبضع برتقالات ، تحية لى فى هذا العيد ... وكنت أعلم أنها لم تكن تدخر فَلْساً لهذا الغرض ، ولذا كنت

أضطر — حين تأتى بالورد وبالبرتقال — أن أقترض ورقة مالية بعشرة فرنكات لأدسها في يدها مساعدة لها ، مدفوعاً بعامل الحاجة الذى شربنا معاً بكأسه

إذا عرفت ذلك من أمر هذه المرأة البائسة ، فاعلم أثابك الله أنها جاءت إلىّ ذات يوم لترجوني فى أن أشرفها بالذهاب إلى بيتها للمشاركة فى عرس أختها ، وهو عرس تعرف أنت مما قدمت لك مقداره من الرونق وضيق الاستعداد

وقد وعدتها أن أذهب ، وكان أول ما فكرت فيه هو المبلغ الذى أستطيع أن أعينها به بعد أن أندمج فى العرس المتواضع كواحد من أهله

وأقيم العرس فى الطابق الأول من بيت قديم فوق مخزن للخمور بشارع شارنتون ، فى غرفة كبيرة أضيئت ببضعة مصابيح زيتية ذات مرايا من الصفيح ؛ وصفت فيها مقاعد من الخشب مجللة بسواد كثيب هو سواد القذر من غير شك ، وقد اشترك فى العرس ثمانون مدعواً لبسوا أحسن ما يُلبس فى يوم الأحد ، وحملوا أغصاناً من الزهر اليانع ، ثم أخذوا من الرقص بنصيب مبالغ فيه ، ومن المرح بكأس دهاق ، حتى لكأنما كانت الدنيا موشكة أن تنتهى لميعاد

هذا ، وقد جعل الرجال وأزواجهن يتبادلون تحيات خبيثات ، ويتراشقون بآهات فاضحات ... وكذلك كان يفعل الغلمان والشباب والكواعب الأتراب ... وكان يبدو على وجوه الجميع أمارات عجيبة من نشوة الفرح لا يسمو إليها الوصف ، ولا يستطيع تصويرها القلم

أفرأيت إذن إلى هذه المقدمة الطويلة المملة ؟ ! إنها لا تمت إلى قصتى بسبب ، فدعها جانباً ، ولا تذكر منها إلا أثراً طفيفاً يكون كالهواء الذى تتنفس فيه القصه ... فقط ... يجمل أن تذكر المنظر ... ومخزن الخمر الشاحب الأرجوانى ... ورائحة الخمر التى تفوح منه ... وصرخات الفرح والمرح ... وأن تتخيل أنك فى هذه القاعة وسط القوم ، بين العمال المساكين والفقيرات البائسات ، تشركهم فى عرسهم المتواضع

أما فرقة الموسيقى فكانت تتكون من لاعب على كمان ، وعازف فى ناى ، ونافخ فى مزمار ، وكانوا جميعاً من أعضاء ملجأ العميان القريب . وقد دفعوا لهم سبعة فرنكات أجراً كاملا عن هذه الليلة اليتيمة ؛ وبالطبع لم يكن أحد ينتظر أن يسمع بهذا الأجر الطفيف إلى بيتهوفن أو روسينى ... ولذلك كان عزفهم (حيثما اتفق !) لأن أحداً من الموجودين بالغرفة لم يكن يعنى باحصاء الفلتات الموسيقية ، وأخطاء النوتة ، وسائر ألوان النشاز التى كان يقع فيها عميانا المحترمون ... أما أنا ... فلى الله ! لقد كانت موسيقاهم وقراً فى أذنى ، وكابوساً على قلبى ، وقد تلفت من الضيق فوقع نظرى على الثالوث الأعمى وقد رثيت لحالهم فغضضت الطرف عن ملابسهم المرقعة ، وثيابهم المرفوة ، وقد كان من العسير علينا أن نتبين سحنهم لأنهم وقفوا يعزفون فى نافذة عالية ، فكان الضوء يسقط على أقفيتهم تبعاً لذلك وكانت أوجههم فى الظلام ، ولم أدر ما ذا دفعنى نحوهم ، إلا أن تكون القوة الكامنة التى حدثتك عنها فى المقدمة الطويلة الماضية . لأننى وجدتنى أتغلغل بروحى فى كيان الأعمى العجوز الذى كان يعزف على الناي . وكان الموسيقيان الآخران فى مرح دائم وسرور مستمر . بعكس صاحب الناى الذى ما أحسب مخيلة فنان أو عقل فيلسوف قد اتفق لها مثل خلقه أو محياه ... وتستطيع أنت أن تتخيله إذا رسمت فى ذاكرتك طيفاً لدانتى ، ودلّيت على على وجنتيه غابة كثيفة كثة من الشعر الأشيب

البراق ، ثم موّهت وجهه العبوس الصارم بما يتبع المعنى من مرارة وحزن ولأواء … لقد كانت عيناه البيضاوان تتأججان بلهيب خفى ، تشغله رغبة ثائرة ثائرة ، فينغضن جبينه ذو الخطوط والشقوق والأسارير ويبدو كأنه حائط أثرى لعبت فوق ملاطه تصاريف الزمان

وكان الرجل ينفخ فى نايه فى غير مبالاة وبدون اكتراث ، غير معنى بأحد ممن سعى إلى العرس ؛ وقد كانت أصابعه تتبعثر فوق مفاتح الناى فى ارتخاء وحيثما اتفق … ولم يكن يأبه بألوان النشاز التى يحدثها بعدم مبالاته … وكأنه كان فى واد والراقصون والراقصات فى واد … فلم يكن عزفه يؤثر فى حركاتهم أو حركاتهن … وقد استنبطت أنه إيطالى الأرومة ، وكانت المرارة التى يكتمها فى أعماقه تجعل منه هوميروساً عجوزاً ، يكبت فى صميمه أوديسة قد مسحتها يد العفاء وهالت فوقها تراب النسيان … ومع شقائه الذى ليس كمثله شقاء فقد كان عظيما فى مظهره ، وكان جور الزمان يزيد فى منظره روعة أى روعة !

إن من العواطف القوية ما يدفع الإنسان نحو الخير أو نحو الشر ، فإذا كانت الأولى خلقت منه بطلاً مغواراً ، وإذا كانت الثانية جعلت منه مجرماً أثيما … وقد تضافرت عواطف الشر كلها فنحتت وجه هذا الأعمى الايطالى الصارم الجبار !

إنك لو رأيته لهالك أن ترى بداوات النقمة تنبعث كالشهب المحترقة من فجوتى عينيه ، أروع مما ترى إلى عصبة من قطاع الطرق شاهرة خناجرها فى فتحة كهف سحيق ، أو كما تنظر إلى سبع جائع يقضم قضبان قفصه

لقد خبت نيران اليأس فى صدره ، وبردت الحمم المتقذفة على جبينه ، ولكن أثراً من دخان ذلك الماضى المؤلم كان ما يزال مكوّماً ثمت آية على الشقاء القديم … فمن هذه الجذوات الخامدة هذا القبس الذى بدأ يتضرم به قلبى ، وينساب بالجحيم والمُهل فى عروق !

أما العازفان الآخران فقد كانا يهشان للخمر ، وكانا كلما انتهت وصلة أفرغا من الزجاج فى كأسيهما فإذا شربا ما هو حسبهما ، ملأ لصاحبهما شوْباً فاحتساه فى تأدب وشكر لهما بإيماءة من رأسه … وكانت حركاتهم فى كل ذلك محكمة مضبوطة حتى لتحسب أنهم غير عميان … والعجيب من أمرهم أننى حينما دنوت منهم أحسوا بى ، بل وثقوا أن بالقرب منهم رجلا ليس من العمال الذين تكتظ بهم الغرفة الفسيحة ، ولذا فقد فاءوا إلى وقار مصطنع ، وتمملوا الهدوء ونبل السمت

وقلت أخاطب صاحب الناى :

— من أى أطراف الأرض سمت بك قدماك يا صديقى يا صاحب الناى ؟

فقال فى لهجة إيطالية : « من البندقية ! »

فقلت : « وهل ولدت هكذا أعمى ، أم ابتليت بهذا عن عَرَض ؟

فقال : بل ابتليت به قريباً … نقطة لعينة ذهبت بنورها !

فقلت : إن البندقية مدينة جميلة ، ويا طالما حلمت بالسفر إليها !

وقد هاج ذكر البندقية شجون الرجل ، فقد رقصت أساريره وبدا عليه التأثر ، وقال :

لو أننى ذهبت إليها معك لوفرت عليك كثيراً من وقتك !

وهنا تدخل صاحب الكمان فقال : « لا تكلم الدوج عن البندقية ، وإلا فانك تخرجه عن طوره فيلتهم كل هذه القنانى … » وقال صاحب المزمار :

« هـلم فلنعزف الآن يا دادى كنارد ! » وانطلق الثلاثة يعزفون للرقصة الرباعية ، لكن أخى صاحب الناي لم ين يفكر فى البندقية بدليل ما بدا على جبينه الجعَّد من الأشراق وما شاع فى وجهه الهائل من الجذل

وقلت له : « وما عمرك يا صاحبي ؟ »

فقال : « ثنتان وثمانون ! »

فقلت : ومنذ كم سنة عميت ؟

فأجاب : ها ... منذ خمسين ! تقريباً !

وكان يرسل جوابه فى حسرة وتلدد عرفت منهما أنه كان يأسف لشيء ثمين أعز عليه من عينيه ضاع من يديه

وقلت له : إذن فلم يدعونك دوجاً !

فافتر باسماً وقال : « أوه ! إنها مزحة ! ومع ذلك فأنا نبيل بندقى ، ولو أردت لكنت دوجاً أعظم من أى دوج آخر »

وقلت له : وما اسمك أيها الأخ ؟

فقال : هنا — فى باريس — أعرف باسم بير كانيه وهو اسم أردت به تعمية السجل . أما فى إيطاليا فاسمى ماركو فاسينوكين أمير فارسيه

فقلت متعجباً : ماذا ؟ أنت حفيد الزعيم العظيم فاسينوكين الذى انتزع أراضيه دوقات ميلان ، بعد إذ استولى عليها بحد السيوف ؟!

فصاح متأثراً : « مرحى ! لقد تعرضت حياة ولده للخطر فى ظل الفيسكونتى ففر إلى البندقيه وسجل اسمه فى الكتاب الذهبي . والآن لا كين ولا الكتاب الذهبى فى هذا الوجود ! » قال ذلك وبدت عليه علائم الانفعال والتأثر ، وكانت حماسة الوطنية تهيج فى أنفاسه ، ثم يذهب بها الضيق من الحياة

وقلت أسائله : ولكنك إذا كنت فى المبدأ نبيلاً بندقيًّا فلا بد أنك كنت مثرياً واسع الثراء ، ففيم إذن بددت ثروتك ؟

فقال : فى أيام الشدة !

وكان زميله صاحب الكمان يعرض عليه كوباً من الخمر فنحاه عنه ... لأن الحديث المؤلم عن ذلك الماضى الملىء أفقده شهيته إلى الشراب

مسكين هذا النبيل البندقى الذى ابتلاه الله بى ليرده فجأة إلى ذكريات ماضيه البعيد ، حين الشباب غض والصبا فى إبانه ...

فينيس ! هذه البندقية ! عروس الأدرياتيك ! لقد شهدت خرائب وآثاراً فى وجه هذا البندقى الذى كان كله خرائب وآثاراً ، ولقد رأيتنى أرتد إلى ما قبل نصف قرن فأمشى جيئة وذهاباً فى المدينة الجميلة التى يمشقها ساكنوها ... وهأنذا أنطلق من الريالتو إلى الجراند كنال ، ومن الريفا دجلى شيافونى إلى الليدو ، ثم أرتد إلى السانت ماركس ... تلك الكتدرائية التى لا تطاولها كتدرائية فى حسن البناء وروعة التركيب ... وهأنذا أردد الطرف في نوافذ الكاسا دورو ذات النقوش والتصاوير ... وها هى ذى القصور الباذخات وعجائب النباتات التى تنطبع فى الذاكرة فتظل ألوانها إلى الأبد فى صفحتها كالأحلام المطيمة التى لا تقوى الحقائق المجردة على محوها

ثم هأنذا أرى تيار الحياة الجارف يرتد فيكتسح بمآسيه وأحزانه هذا النبل الذى يتطاير كالشرر فى تضاعيف الزمن !

لا جرم أن أفكارى هذه كانت تضطرب فى نفس صاحبى البندقى الأعمى ... بل هى كانت تخطر فيه أسرع ما كانت تخطر فى بالى ، لأن فقد حاسة البصر يساعد العميان على حضور البديهة وسرعة التفكير ، وتركيزه تركيزاً عجيباً

ثم ترك فاسينو آلته وموسيقاه ، ونزل عن مجلسه فى النافذة ، وقال : « هلم نخرج من هنا ! » وقد سرت كلماته فى أذنى سريان الكهرباء ، فأعطيته

ذراعي وانطلقنا من غرفة العرس ، حتى إذا كنا في الشارع التفت نحوى فى انكسار وقال لى : « ألا تمیدنی إلى البندقية ؟ ألا تأخذنى معك إليها ؟ ألا تتنازل فتكون قائدى ؟ ألا ترد إلى تفتى وإيمانى ؟ إنك إن فعلت فإنك تصبح أغنى من عشرة بيوتات مالية من بيوتات أمستردام أو بيوتات لندن . إنك تصبح أغنى من روتشيلد ! وقصاراى أنك تحصل على أضعاف هذه الثروات الخرافية التى ربما تكون قد قرأت عنها فى ألف ليلة ! »

لقد كانت بداوات الجنون تلوح فى مخايل الرجل ، ولكن حرارة الإيمان التى كانت تفيض من منطقه جعلتنى أطيعه ، بل جعلتنى ألتى إليه زمامى — أنا البصير ! — فذهب يدلف بي نحو ميدان الباستيل فى وعى عجيب ، حتى إذا كان عند بقعة موحشة دانية من النهر ، عند ملتقى ترعة سانت مارتن بالسين ... وقف قليلاً ، ثم جلس فوق صخرة ثمة ، وجلست أنا تلقاءه ... وهنا ... كان منظره رائعاً وقوراً ، وكان شعره الأشيب يتلألأ فى ضوء القمر كسلوك من فضة ! وكان كل شيء ساكناً ، ولم نكد نسمع إلا نجيج الحركة الدائبة فى ظلام البعد ... وكان النسيم البليل الليلى يزيد فى سحر المكان ، ويضفى إليه أستار الخيال

وبدأت الحديث فقلت له : « إنك تتحدث عن الملايين إلى فتى يافع ابن عشرين ؛ أفحسبت أنه يهاب الردى فلا يقتحمه للحصول عليها ؟ ولكن ... ليت شعرى ، ألم تكن تهزأ بى ؟ »

فأجابنى فى اهتمام : « ألا لاطلعت على شمس غد إذا كان حرف واحد مما سأقوله لك غير صحيح ... حينما كنت فى سن العشرين كما أنت الآن غض الأهاب فينان الشباب ، كنت نبيلاً بمولدي ، غنياً ضخم الثراء ... ثم ... نبض قلبى بالحب ، وجرفنى تيار الغرام ، وكان ذلك سنة ١٧٦٠ ، حين ملكت لي خريدة من صبايا أسرة فندرام ، جميلة الخلق ، فتانة الجسم ، ساحرة اللفتات ، متزوجة من أحد رجال مجلس الشيوخ الذى كان هو الآخر يعبدها عبادة ... وكم كنت ألتى فى سبيل غرامي هـذا من أهوال لاتصبر على بعضها الجبال ... وكم عرضت نفسي للقتل المحقق من أجل قبلة سحرية أطبعها على شفتيها الرقيقتين ... فبينا كنا نتساق كؤوس الحب الصافى كملكين طاهرين إذا زوجها يفجأنا ، وإذا به ينقض عليّ بسلاحه يود لو أغمده فى صدري فيسكت به أنفاسي ؛ وأتيت بحركة سريعة جعلته يخطئ الأصابة ، ولم يكن معى سلاح مثله ، فتمكنت لحسن الحظ من عنقه ، وقبضت عليه بكلتا يدى ثم ضغطت ضغطة هائلة ، فسقط البائس ميتاً ، فى سبيل الدفاع عن عرضه ... وشرفه ... ثم أغريت بيانكا — وهذا هو اسمى حبيبتى — على الهرب معى ، لكنها رفضت — ولم يكن هـذا جديداً من حال النساء ... فذهبت على وجهي فى الأرض وحدى ... وصـدر الحكم عليّ غيابياً بالشنق واستصفاء أملاكى ، بيد أننى كنت أعرف هذا المآل من قبل ، فحملت معى جواهرى وأموالى ، وخمس صور تيتسيانيات — بندقيات — انتزعتها من إطاراتها ثم لذت بالفرار إلى ميلان ، ولا أنيس لى ، ولا من حبيب يواسيني إلا ... ذهبى الكثير الذى أحببته قبل أن أحب أحداً آخر ... وللذهب معى قصة تبدأ من قبل أن أنشق نفساً واحداً من هواء هذه الدنيا ، فقد قيل إن والدتى وحمت عليه وهى حامل بى ، وقد أثر ذلك في جنينها ، فلما نزل إلى الدنيا لم يكن يعشق شيئاً عشقه للذهب ... فلما شببت كنت أتزين بالجواهر واللآلئ الغالية ، وأحمل معى كيساً يحوى مائتين أو ثلثمائة من الدوقيات أبددها بغير حساب »

وحينما قال ذلك ضرب يده فى جيبه ثم أخرجها

مملوءة بحفنة من الذهب ووصل حديثه فقال :
« الذهب ! آه من هذا الذهب الذى أصبح دعامة الحياة فى هذا العصر كما كان فى كل عصر … إنى أستطيع أن أحسه على بعد وإن كنت أعمى ياصاح ! ومن غريب ما يحدث لى أننى أقف بالبديهة أمام دكان الجواهرى أشبع شيطانى الكامن بمواجهة اللآلئ وإن كنت لا أرى منهن شيئاً … وهكذا كان هذا الشيطان رائدى إلى الخراب ، لأنه قادنى إلى القمار لألعب بالذهب ، فما زال يخدعنى حتى حطمنى ، وفقدت جميع ثروتى … ثم عاودنى الشوق الملح للقاء بيانكا … فاسترقت الخطى إلى البندقية ، ومازلت أطوى إليها السبيل مستخفياً حتى لقيتها … وخبأتنى الحبيبة عندها ستة أشهر مرت كالحلم فى أحسن ما يكون بين العشاق … ووقر فى روعى أن أنهى الحياة على هذا النسق السهل الجميل المواتى ، لولا أن شعر بحالها البروفيدوتور ، فبث عيونه وأرصاده ، حتى فاجأنا يوماً فى فراشه الدافئ ، وهى غارة فى حضنى السعيد ، فكانت بيننا معركة هائلة ، لأنها من أجل الحياة ! ! على أننى لم أقتل الرجل ، بل جرحته جرحا بالغاً … فلما صاح بالخدم أقبلوا مسرعين ، وهنا اشتدت المعركة ، وساعدتنى بيانكا فى الاجهاز على الرجل … بيانكا التى رفضت من قبل أن تهرب معى … ها هى ذى تقف إلى جانبى لتناضل عنى ، ولتتلقى عدة طعنات من أجلى ، وتتمنى أن تموت معى فى تلك المعركة الحامية … ولما ضاق الخدم بى ، ألقوا علىّ عباءة كبيرة ولفونى بالقوة ثم حملونى إلى قارب — جوندولا — وأسرعوا بى إلى سجون البوزّى ، حيث قذفوا بى فى إحدى (زنازينه) بعد أن احتفظت بقبضة سيفى المكسور وقطعة من صفحته ، احتفظت بهما ، وصممت على حمايتهما ولو بروحى ، لعلمى أنهما أنفع لى يوماً من الأيام — ولم تكن جروحى بذات خطر ، والناس يقولون إن الجروح تندمل فى الشباب أسرع مما تندمل فى غير هذه السن

« وعرفت أننى لا بد مشنوق بعد حين ، أو فاقد رأسى . وكان القبو الذى حُبست فيه قريباً من البحر كما وهمت ، فعولت على الهرب بنقب الحائط والفرار برقبتى وروحى جميعاً

« وكان الحارس كلما فتح باب القبو دخل بصيص من النور كان يكشف على ضآلته جدران سجنى ، فرأيت مكتوباً على كل منها : (ناحية القصر) و (ناحية الترعة) و (ناحية الأقبية) . ثم لمحت رسماً على هذا الجدار الأخير لم أهتم كثيراً به ، وعرفت بعد أنه صورة للقصر الدوقى . وقد أثار فى تلهفى إلى النجاة ذكاء حاداً لم أعهده فىّ من قبل . ولذا جعلت ألتمس الحائط بأصابعى وأتحسس ما عليه من النقوش ، وكان الظلام دامساً شديد الحلك . واستطعت آخر الأمر أن أتهجى كلمات عربية عرفت منها أن حافرها يخبر من يجىء بعده أنه قد قلقل حجرين كبيرين فى أسفل أساس البناء ، ثم أفرغ أحد عشر قدماً فى الأرض مما يلى الحجرين . وأنه كان يستعين على إخفاء آثار الحفر بنثر التراب المتخلف فوق أرض القبو حتى لا يكشفه الحارس . وكان هذا احتياطاً لا داعى له من السجين البائس ، فقد كانت أرض القبو عميقة بعدة درجات من بابه بحيث لم يكن يُعنى السجانون بتفتيشها ، ولا بإلقاء نظرة مجردة عليها ، ولم يكن منظرها فى هذا الظلام الدامس يثير شكوك من ينظر إليها

وا أسفاه ! ! لقد جهد السجين كل هذا الجهد لينجو ، لكن جهده لم ينفعه لأنه قتل ! ومما نقش فى حائط القبو عرفت أنه كان عربياً أو من أصل عربى ، فلولا إلمامى ببضعة لغات شرقية لما استطعت أن أصل ما انقطع من عمله الشاق . لأنجو أنا بنفسى … فشكراً لهذا الدير الشرقى فى أزمير . حيث تعلمت

هذه اللفة الكريمة التي بها أفلت من سجني ! لقد ذكر المسكين في نقشه أن الحكومة البندقية قد قبضت عليه واستصفت أمواله ثم حكمت عليه بالإعدام ... فيالله ما أشبه الجدود العواثر !

« ووصلت ما انقطع من عمل الرجل ، ولبثت شهراً كاملا أحفر بقبضة سيفي العزيز والقطعة التي بقيت من صفحته ، وكنت أنسرق في السرداب فوق بطني وصدري ، وأعمل أظافري في التراب .. وكلما ذكرت دنو الموعد الذي تبقى لي لأمثل أمام قضاتي ، وأن ذلك سيكون بعد يومين اثنين ضاعفت مجهودي لدرجة الاستماتة حتى أسعفني الحظ ، وأدركتني رحمة السماء ، فرأيتني أصل إلى غاية لم أكن أحلم بها ..!

« وهنا .. يلعب الذهب دوره من جديد ياصاحبي العزيز ! الذهب واللآلئ ... ثروة البندقية كلها .. ذهب ... لآلئ ... ماس ... كل هذا يا صديقي خطف بصري وأذهل شيطاني

ولم يكن يحجزني عن هذا الكنز إلا عارض من الخشب كان لابد أن أزيله لأصل إلى هذه الثروة الطائلة ... فخلعت ملابسي وعملت عارياً بكل قواي حتى أزحته قليلاً ... ثم تعبت فجلست أستجم ، وسمعت باب الكنز ينفتح فجأة ، فنظرت فإذا دوج البندقية نفسه يدخل ويدخل وراءه عشرة من رجاله الأقوياء ، فينظرون إلى أكوام الذهب وزنابيل اللآلئ ، ففهمت من حديثهم أن ههنا تخبئ الجمهورية ثروتها العامة وغنائمها من الغزو والحروب

وفكرت وفكرت ... فهداني التفكير إلى ضرورة إشراك السجان معي في حمل ما نستطيع حمله من هذا الكنز ، والهرب إلى أقصى آفاق الأرض ... ولم يتردد المسكين في قبول اقتراحي ، بل أقدم عليه بقلب أشجع ألف مرة من قلبي ... واتصلنا بحبيبتي بيانكا فقامت من جانبها بمساعدة هائلة ، وأعدت هي والسجان قوارب النجاة ، وبعد أن اتخذنا كل الاحتياطات الواجبة في مثل هذا التدبير دعوت صاحبي فهبطنا إلى كنز الجمهورية الثمين !

« يا لها من ليلة ! لقد وقف السجان مسبوهاً أمام زنابيل اللآلئ وصناديق الذهب ، ثم انطلق فجأة يرقص ويغني ، وينتقل كالفراشة من غرفة التحف الفضية إلى قبو الذهب ، فما شككت أن المسكين قد أوشك أن يجن ... وقد خفت أن تفلت الفرصة من أيدينا بهذا النزق وذاك الطيش ، فلم أتركه يستمر في ضحكه ورقصه وجنونه إلا ريثما أملأ جيوبي وكل فجوات ملابسي بخير ما رأيت ثمة من لآلئ وجواهر وماسات ، ثم صحت به أن يتزود ، فانكفأ يقذف في جيوبه هو الآخر ما اشتهت له نفسه ثم أمرته أن يملأ أكياساً كانت ملقاة في زاوية وأفعمها ذهباً ... وحذرته أن يمس اللآلئ لأنها تنم عن حاملها فيضبط وينال جزاءه ، فعزف عنها ، في حين كنت أنا أغافله وأنتقي منها لنفسي ما أشاء فأدسه في ثيابي بين البطانة والظهارة ، وبرغم ما كان يستولي علينا من جشع فانا لم نحمل من الذهب إلا ما قيمته ألفا جنيه إذا ما وزن ، وقد رشونا الحارس الواقف كالعفريت عند البوابة بكيس فيه وزنة بعشرة جنيهات ، أما الملاحون فقد أوهمناهم أنهم إنما يخدمون الجمهورية بمساعدتنا ، على ذلك أبحرنا حينما تنفس الصبح أو كاد

وحينما كنا بمأمن في عرض البحر ، عاودتني أشباح الذهب واللآلئ . واضطربت في ذهني صور الكنز العظيم الذي خلفناه وراءنا ، وبدأت أذكر ذكريات الملايين التي كانت منذ ساعة في قبضتنا ، فقدرت قيمة الفضة بثلاثين مليوناً ، والذهب بعشرين مليوناً ، واللآلئ والماسات بأضعاف ذلك ... وهنا ... شعرت بحمى الذهب تسيطر على مشاعري وتتسلط على وجداني ، وتسري في نخاعي !

ثم رسونا إلى أزمير ، وركبنا البحر ثانية إلى فرنسا ، وكم شكرت لله وصليت حينما ركبت في

السفينة الفرنسوية لأنى أصبحت بمأمن من كل عين ولأنى تخلصت من شريكى المجرم فى الجريمة ... ولم أعد أفكر فى العواقب المحتملة لهذه الفعلة الشنعاء ، بل لم أكاف نفسى قبل أن نفترق بمكافأة شريكى عن هذا الجرم ، لأنى كنت ألحظ أنه يكاد يجن من الفرح بما أفاءت السرقة عليه ... فانظر كيف اقتصت المقادير منى

وقد يشدهك أن أذكر لك أننى ما عرفت شيئاً من هدوء البال حتى بعت ثلثى ما حملت من اللآلئ والماس فى لندن وفى أمستردام ، وإلا حينما تخلصت من التبر الذى معى بأن استبدلته بكل أحمر رنان وقد لبثت مستخفياً فى مدريد ما يقرب من خمس سنوات ثم رحلت إلى باريس بعد ذلك تحت اسم اسبانى مستعار ، حيث عشت عيشة كلها سعة وبلهنية

وفى هذا الجو الفردوسى من السعادة ، وفى ذاك العباب الزاخر من اللذة التى تجلبها ثروة ستة ملايين من الجنيهات ، قضت المقادير أن تبلونى بالعمى ! وقد عللوا العاهة التى نزلت بعينىّ من إقامتى فى مكان موحش — الزنزانة ! — بيد أننى عللته بما هو أدنى من ذلك إلى الحق ... وبلاه ! لقد فقدت بصرى من طول ما بكيت على بيانكا ... فقد ماتت !

ولكن لا ! ... ليس ذاك أيضاً ! فاسمع إلى تلك القصة : « لقد وقعت فى شراك حب جديد ! سيدة من غانيات باريس بحت لها فى نوبة جنون غرامى باسمى وسرى . ولقد كانت هى صديقة من صديقات مدام دى بارى ... وقد كانت هذه العلاقة سبباً فى ربط أسبابى بأسباب لويس الخامس عشر ...

وقصارى القول ... لقد ألقيت بالى كله إلى حبيبتى الجديدة التى أشارت علىّ بشد الرحل إلى لندن لاستشارة طبيب من أطباء العيون المشهورين فيها ، فسافرنا من فورنا . وبعد عيشة راضية منعمة بالقبل ، مغسولة بدموع الحب ، هجرتنى حبيبتى فجأة فى الهايدبارك ... أواه ياصديقى ! لقد هجرتنى

اللعينة بعد أن ابتزت آخر دانق معى ! ومع ذلك فلم أجسر أن أحتج بكلمة ، لأنها وقفت على سرى ، ولأنها إذا باحت به ، فقد عدت إلى عدالة مملكتى لتقتص منى قصاصاً مضاعفاً ... وذلك الذي أخافنى فلم أقصد إلى أحد من معارفى لأستمده يد المساعدة

ولم تتركنى الشيطانة لشأنى بل بثت على العيون والأرصاد الذين ضقت بهم ذرعاً ، فأخذت فى مقاومتهم ، لكنهم اتخذوا تلك المقاومة حجة على اختلال قواى العقلية ، فتقدمت المرأة المخاطرة إلى مستشفى المجاذيب (جيل بلاس) تطلب زجى فيه ، فنجح مسعاها ، وحللت عليه ضيفاً غير كريم حيث أقمت بين مجانينه عامين كاملين ..

— وكأنما ثارت فى قلبها الشفقة من أجلى فأخرجتنى من هذا البيمارستان وزجت بى فى ملجأ للعميان ... أواه ! لقد عجزت أشنع العجز عن قتلها ! بل عجزت إطلاقاً عن رؤيتها ، وكنت على شراء سلاح ينفعنى أعجز منى فى الحالين !

« ولو قد كلمت سجانى بندتـّو كاربى قبل أن أتركه فى أزمير ، لعرفت منه موضع القبو الذى كنت مسجوناً فيه ... إذن لعدت مرة ثانية إلى الكنز ، ولانتهزت الحقبة التى غزا فيها نابليون البندقية ومحاها من الوجود .. وإذن .. لعدت غنياً من جديد !!

« هل سمعت ياصاح ! إننى برغم هذا العمى الذى طمس عينى مستعد للذهاب معك إلى البندقية . . . وكلى ثقة أننا إذا ذهبنا ، فلا بد أن أعرف مكان الكنز ... إنى ما زلت أرى الذهب برغم عماى ؛ إننى لم أفقد حاسة النظر إلى الذهب .. إنها حاسة سادسة فى طبيعتى ؛ إننى أستطيع أن أرى ذهب البندقية ولو كان مطموراً تحت الماء ... لقد دفن خبر الكنز الثمين مع جثمان فندرامين ، أخى بيانكا . . . هذا النبيل الذى أنبأته به ليجنبنى خصومات المشرة[1]

« اسمع ياصاح ! لقد كنت بخصوص هذا

(١) مجلس جمهورية البندقية

الكنز إلى القنصل الأول[1]، ثم إلى امبراطور النمسا فسخرا مني، وكتبا إلى السلطات بضرورة مراقبتي أو زجي في بيمارستان ... فهلم أنت ... هلم بنا إلى البندقية ... لنذهب إليها في زي شحاذين، لنعود منها من أصحاب الملايين ... إني أستطيع بذلك أن أرد أملاكي، وستصبح أنت وارثي ... إنك ستكون أمير ڤاريزي !! »

* * *

وسكت الرجل، ودارت بي الدنيا ...

ونظرت إليه، ثم إلى السين، ثم إلى الترعة، تخيل لي أنني أنظر إلى قنوات البندقية؛ ثم رددت في وجهه الغضن عيني، تخيل لي أنني أنظر إلى جدران الباستيل، غائصة في مياه البندقية كذلك

وتلبثت برهة لا أنبس، ودار بخلدي أن الرجل قد أخذ يستريب بي، ويظن أنني أرثى له كمجنون كما رثى له الآخرون، فبدأ وجهه يتقلص، ويعتلي بالأسارير، ويعبر عما يشيع فيه من فلسفات اليأس، وخلجات القنوط

ومن يدري؟ فلربما هاجت هذه القصة ذكريات البندقية في قلب الرجل، فطفق يبكي شبابه ويني حبه ... آية ذلك أنه أدنى نايه من شفتيه، وأخذ يلعب لحناً مؤلماً، حنوناً، لم تقع فيه لحنة أونشوز ... ولا غرو ... فقد كان لحن حبه الضائع، وشبابه المولى

ثم امتلأت عيناه المعياوان بالدموع .. وسرت الموسيقى في هواء السين تجلجل وتتكسر مع أمواج النهر .. فلو أن عابراً سهماً تحجر قلبه، لوقف ينصت إلى موسيقى الذكريات .. موسيقى لحب المنفى .. الذي يرسل من مزماره آخر صرخة من صرخات الألم ووراء اسمه المنفي الممتزج بذكريات بيكانكا !! ولكن سرعان ما علا ميزان الذهب، وشال ميزان الحب ... ونكس ميزان الشباب !!

وقال في صوت متهدج: « إني أرى الذهب دائماً، في منامي وفي يقظتي ... وإن روحي لا تني تسبح في عالم متلألئ بأضواء النضار والجواهر والماس الثمين ... إني لست أعمى كما عساك تظن، فالذهب واللؤلؤ يضيء لي حلك ليلي الدائم ... ليل فاسينو كين القديم الشاب، لا أنا ... فقد تقاص عني لقبي إلى سمّي !! آه ياربي !! لقد حل عقابك بالقاتل فلم تفلته ... بوركت يا قدوس! ...

ثم ذهب يردد صلوات كثيرة لم أعن بالتثبت منها ... فلما هب واقفاً قلت له: « هل سنذهب إلى البندقية؟ إني مستعد! » فتهلل وجه الرجل وصاح: « إذن لقد لقيت رجلاً بمدطول اليأس! ».

ومددت له ذراعي فلف ذراعه عليه، وذهبت معه ملجأ العميان . وقد لقينا في الشارع جماعات المدعوين يصيحون ويصخبون في طريقهم إلى منازلهم

وقال لي وهو يضغط على يدي: « هل نبدأ رحلتنا من غد؟ » فقلت له: « بمجرد أن يتيسر لنا مبلغ من النقود! » فقال: « بل ننطلق على أقدامنا! إني سأشحذ! إنني مازلت قوياً. وأنت، إنك مازال شاباً موفور الشباب، وستتدفق القوة في كيانك حينما تنظر إلى قناطير الذهب تخطف عينيك

* * *

وتوفى فاسينو كين قبل أن ينتهي الشتاء بعد شهرين طويلين قضاهما في مرض عضال ..

لقد أصابه برد شديد لم يمهله ... مسكين!

دريني خشبة

(٤)

(١) نابليون قبل أن يكون إمبراطوراً

الحب والقتل

للكاتب الفرنسي أرمان بيكير
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

تعريف بالقصة

« ارمان بيكير Armand Bickert كاتب فرنسي ليونى (نسبة إلى ليون) المولد والنشأة . درس القانون ودخل الجندية ، وخاض غمار الحرب العظمى وتخصص فى كتابة القصص التى تكشف عن نفسية بعض رجال الجيش وقد أكسبته دراسته رقة فى الأسلوب ودقة فى الوصف . وقد ترسم خطى بعض كتاب الروس ، لأنه عكف على تمحيص ما طالعه من مؤلفات تورجنيف وتشيكوف وتولستوى ودوستويفسكى وأندرييف . لذا نرى أدبه متأثراً لأبعد مدى بالغموض والخفاء والحزن والطيرة . وقد نال جائزة فيمينا Femina بعد أن نشر تلك القصة التى دلت على علو كعبه ، وهو يرى فى المرأة من التقلب وعدم الوفاء ما يجعلها أداة القدر فى السخرية من الرجال وعدم البقاء على الحب ولو كان للحبيب الأول »

قال إدوار ديبون ، وكان رفيقى فى المدرسة الثانوية ، وقد ضرب الدهر بيننا أكثر من ثلاثين عاماً :

من شأن الحزن أن يرجع بصاحبه إلى العصر الماضى ، فيُشهده في عالم الخيال كل نعمة كان فى سالف الأيام باشرها ، وكل مسرة لابسها ، وكل لذة خالسها ، وكل غبطة عاقرها ، وكل متعة لامسها . ويطيل به الوقوف على أخيلة تلك اللذات والمطايب ، ويكثر به التلوم على أشباح هاتيك المباهج والمطارب ، مبدياً ما بها من طريف المحاسن ، مما كان قد خفى على المرء منها أيام يباشر حقيقة هذه النعم واللذائذ ...

وكذلك الذكريات تذيع بعد افتقاد الأشياء للوهم ، غوامض أسرار كانت أيام وجدانه تغيب عن الفهم ، فلا يدركها الفهم ولا يحيط بها العلم . فمن ذلك ترى يا صاحبى أن الحزن تخيم من فوقه اللذة ، وأن البلاء الذى تحتمله إذ ذاك لا شبه له بالألم المطلق الذى لا يكون قط إلاّ بغيضاً منكراً ، والذى ما نزال نبتغى الخلاص من ربقته

فقلت له : لم يكن هذا عهدى بك يا ادوار ، فقد كنت باقعة المرح ، ومقدمنا فى الأفراح ، وقائدنا إلى كل لهو برىء . فما الذى طرأ عليك حتى غيّر طبعك وبدّل خصالك وأصبحت تنمت الماضى نعت المصاحب ، وتندب بلواك وتبكى شجوك وأشجانك ... ؟ أما أنا فلا أحب إدامة الإطراق والتفكير والهم ، ولا الاسترسال مع الخواطر المحزنة والاندفاع فى تيار الهواجس المترحة ، وشأني أن أفرق بين الخاطر المحزن وأخيه بالفكرة السارة ، والذكرى المفرحة .

فقال إدوار :

— إن هذه الخواطر الحزينة التى تممل فطرتك الطروب على مطاردتها ، مع ما طويت عليه من حزن ، واحتوته من شجن ؛ لتكسبنى لذة وتورثنى متاعاً . ومنذ لعبت يد الحوادث بمقدراتي ، وأوردنى حسن الظن بالدنيا وناسها ، ووفرة الثقة بصدقهم وإخلاصها ، والانخداع بظواهر الأمور ، سجلّ العناء والألم ، صبوت للحزن ، وتاقت نفسى إلى الأسى ؛ فسرّحت خاطرى فى أودية الذكرى ، وإن من الحنين ما يستحب ، ومن الدموع ما يستعذب

فقلت له : لقد تركتك وقد أحرزت إجازة التعليم الثانوى من «لسيّه لوى ترِيز» وكنت تنوى أن تتم دراستك فى إيكول سنترال ، فقد كانت مواهبك الرياضية جد متألقة

أجاب : نعم ... ولكن والدى ألحقنى بكلية سان سير الحربية ، لأن لأسرتنا تقاليد من عهد بونابرت ، وكان لى جد وعم وخال حملوا السيوف وعرضوا الرماح ، وخاضوا غمار الحرب تحت لواء الأمبراطور نفسه ، فلم أعص له أمراً . وبعد أن تخرجت برتبة الملازم فى سلاح المدفعية ، تمهيداً لترقيتى إلى صفوف أركان الحرب ، عينوا إقامتى فى بلدة « آنسى » ولعلك يا أخى لا تعلم كيف تكون عيشة الضباط فى الجيش ، فى الغداة التدريب العسكرى وامتطاء صهوة الجياد ، ثم الغداء مع القائمقام فى مطعم يهودي ، وفى العشى الراح والسمر والميسر فى الأيام الأولى من الشهر ، عند ما تكون أكياسنا عامرة بالمرتب . ولم يكن فى بلدة آنسى فى ذلك العهد بيت واحد مفتوح ، ولا فتاة واحدة صالحة للزواج ؛ فكان دأبنا التزاور ، وأن نتلاقى فى مثوى أحدنا ، حيث لانبصر إلا وجوه الرفاق ! ولم يكن يخالطنا لارجل واحد من الملكيين (هكذا كنا نسمى كل شخص خارج الجيش اعتزازاً بأنفسنا وازدراء بالآخرين !) وكان هذا الرجل الملكى يناهز الثلاثين ، فعددناه — لحداثة أعمارنا — شيخاً كبيراً . يا للغرور ! وكان يمتاز علينا بفضل حنكة وتجربة ، وكان لما انفرد به من طول الصمت وعمق السكوت وعبوس الوجه ، وذرابة اللسان (حين يسمح لنفسه أن يتكلم) ومرارة التهكم ، وقع فى نفوسنا وأثر بليغ . وكان يخيل إلى أدمغتنا الفتية الطائشة أن لهذا الرجل ، لاريب ، نبأ خفيًّا وشأناً غامضاً ؛ وأن سرًّا مجهولاً يحيط بحياته . وأظنك يا أخى لا تزال تذكر دروسنا فى علم النفس ، فأول وأقرب مايبدو لنا من خصائصهما هو الوجدان المسمى بالتطلع ، والميل إلى استكشاف الجديد والتلذذ به ؛ وقد علمنا أن كان له سابق خدمة عسكرية فى الهوسار ، حيث أبلى بلاء حسناً . ولم يعرف أحدنا العلة التى من أجلها ترك الجيش وهو فى مقتبل العمر ، وطاب نفساً بالاستتار فى آنسى ، حيث عاش عيشة جمعت بين الفقر من ناحية ، وبين التبذير والإسراف المهلك من ناحية أخرى ، فكان لا يزال يسير على قدميه ، لا يركب قط مطية ولا ينفك فى كساء رث قديم ؛ ولكن طعامه كان بين أصحابه مشاعاً مشتركاً ، وكان خوانه لإخوانه مستباحاً ، وسماطه للدانه منتهكا ... لا أقول إن مائدته كانت رداحاً ، ولكن الخمرة كانت تفيض من دنانه فيضاً وتهطل من أقداحه هطلاً . وكان أشد ولعه وشغفه بالرماية ، ينصب الأهداف ولا يزال يرميها بطلقات بندقيته ... وقد بلغ فى الرماية مبلغاً لم يُسمع به ، ولا يكاد يصدقه إنسان ؛ وكان حديثنا كثيراً ما يدور على النساء والقمار والمبارزة ؛ ولكن سيلفان (وهذا اسمه) لم يكن يشاركنا فى هذا الحديث قط ! وكنا إذا سألناه : « هل بارز قط إنساناً ؟ » . أجابنا بإيجاز وجفاء : أىْ نعم قد فعل ذلك ! . ثم يأبى ذكر التفاصيل فاستنتجنا أنه لابد أن يكون قد قتل رجلاً فى مبارزة ، وأنه يحمل دمه المسفوك فى عنقه ، ويشد وزره وإثمه إلى نياط ضميره .. وسهرنا ليلة للمقامرة وجلس ليوزع الورق بعد أن وضع على المائدة الخضراء ألف فرنك ذهباً . وكان من عادة سيلفان

إذا تصدر مجلس الميسر أن يلزم تمام الصمت ، فلا يجادل ولا يخاصم ، ولا يلج باب حوار أو مناقشة . وكان بيننا فى تلك الليلة ضابط جديد ، ورد حديثاً فرقتنا فأتى في خلال اللعب بهفوة غير مقصودة بأن زاد رقماً واحداً فى حسابه . فتناول سيلفان الطباشير فى سكوت سكسونى وقيّد المدد على صحته كمادته ، وحسب الضابط الجديد المخطىء أن سيلفان أخطأ فشرع يناقشه الحساب ، فلم يحفل به صاحبنا واستمر يوزع الورق دون أن يعيره التفاته ، فنفد صبر الضابط . وتناول الأسفنجة ومحا بها ما ظنه خطأ . فتناول سيلفان الطباشير وصحح الحساب ثانية ، وكان الضابط قد لعبت الخمرة برأسه وأحمت الدم في عروقه ، وهاج الغيظُ عواطفه ، وأثار خاطره ضحكُ القوم ، فطار الغضب فى دماغه وعدها على رب الدار إهانة ، وأمسك بشمعدان نحاسي كان على المائدة وقذف به رأس مضيفنا ورئيس منضدة اللعب فراغ الرجل وأفلت ، وقد كاد الراجم يفلق جبهته كفلق النوى .. عند ذلك تولانا الذعر والروع والدهش ، ونهض سيلفان فى سكينته وهو يحرق أنيابه حنقاً وعيناه تتأججان غضباً ، ولكنه ملك زمام نفسه وأحسن القبض على لجام أعصابه المهتاجة فى وقت لا يملك فيه أقوي الرجال مشاعره وقال للمعتدى : سيدى العزيز ! تكرم عليّ وتفضل بالانسحاب من اللعب ، واحمد الله أن هذا الحادث قد وقع فى دارى ! فانسحب الضابط وهو يقول إنه مستعد أن يبارز خصمه بأى سلاح يختاره . ولم يشكّ أحدنا فى عاقبة هذا الأمر ، وحسبنا صاحبنا الجديد المتهور فى عداد الموتى . واستمر اللعب دقائق معدودة ، وشهدنا انقباض صاحب الدار وضجره ، فانسحبنا واحداً إثر واحد . ومضت ثلاثة أيام ولم تقع المبارزة والضابط المعتدى لايزال على قيد الحياة فقلنا : أمن الجائز أن سيلفان لن يبارز خصمه ؟ إنه إذن لمولود من جديد ، وكأنه ورد سجل الأحياء ليومه . واقتنع سيلفان من الضابط بمعذرة واهية ، ثم صالحه وصافاه ، فسقط سيلفان فى أعيننا معشرَ الضباط الشبان ؛ لأننا رأينا الجبن رأس المساوىء . ولكن هنالك رجالاً يكفى مجرد النظر فى وجوههم لأن تعتقد فيهم الشجاعة ، وكان من بينهم ذلك الرجل الغامض . وما برحت الأيام أن محت من صفحات أذهان رفاق ذكرى الحادث . واستماد سيلفان نفوذه بيننا وسابق هيبته ، ما عدايَ أنا وحدى ! فقد زالت كرامته من نفسى ، وأصغرته وأزلته حتى تنكرت له وجعلت أخجل من النظر فى وجهه ؛ وآنست منه المرة بعد المرة أنه يهم بمفاتحتى ليشرح لى حقيقة حاله ، فجعلت أروغ منه إلى أن ملّ وانصرف . وما لي برجل أغضى على القذى ، واحتمل الإهانة ، وترك صحيفته ملطخة بالعار دون أن يحرك ساكناً لتنقيتها من تلك الوصمة ؟ وكنا معشر الضباط الفتيان نرى الشجاعة كبرى المحامد وعُليا المناقب وفُضلى الخصال ، وقد يجعلها بعضنا ذريعة إلى كل منكر ، وشفيعاً فى كل وزر ومأثم ؟ !

وفى يوم من الأيام زارنا فى ديوان التكنات وقال : « أيها الأخدان إنه قد طرأ عليّ ما يوجب رحلتى من التو واللحظة . وإنى لمسافر الليلة وأرجو ألا تضنوا عليّ بثوا كاتى على مائدة الوداع في بيتى فإنها المأدبة الأخيرة التى أحظى فيها بشرف الاجتماع بكم كسابق عهدنا » فقبلنا دعوته ، وفى الوعد

المضروب لبيت دعوته فألفيت ثمت كل إخوانى ، وكان سيلفان فى أحسن حال من الانشراح فسرى إلينا جانب من سروره وطربه ، وجعلت أباريق الرحيق تفض أختامها ، والدنان يتدفق مدامها . ولما همّ القوم بالانصراف أذن لهم جميعاً وقبض على يدى واحتجزنى ، فلما خلا المكان من الجمع أجلسنى إزاءه وقال لى : لعلنا لا نلتقى بعد اليوم ، فأرى قبل الفراق أن نتفاهم فى أمر بيننا قد غشيه الشك واعتوره الغموض . لعلك عجبت من إمساكي عن مبارزة السكير الأحمق رودولف . على أن حياته كانت فى قبضة يدى ، مذ جعل لى حق اختيار السلاح ، ولكن لو كنت أضمن حياتى كل الضمان لما أعفيته قط من المبارزة ، ولما ترددت لحظة فى استلال روحه من بين جنبيه ، ولكن ليس من حق أن أعرض حياتى للهلاك قبل الأخذ بثأر قديم وسبب ذلك أنى قد لطمت على وجهى منذ ستة أعوام ، ولم أشف نفسى بعد من اللاطم الذي ما زال حياً يرزق

وما كنت ممن ينام عن الثأر حتى الموت . ثم جعل سيلفان يتحرك فى مجلسه كالحائر القلق ، كمن به هم باطن وألم عميق ، ولم يبق فى وجهه أقل أثر مما كان فيه آنفاً من الجذل والحبور ، وكانت صفرة لونه وبريق عينيه وكثافة الطباق المنبعث من غليونه وفمه قد أعارت شخصه هيأة الشيطان ، وصورة من مردة الجحيم ، وأخيراً تكلم فقال :

قد علمت أني كنت ضابطاً فى فرقة الهوسار ، وكان الفسق والفجور والدعارة هى المذهب والعرف المألوف فى أيامنا ، فكنت شيخ الفاجرين وإمام الفاسقين وزعيم أهل الفراغ والخلاعة ، فاتفق فى بعض مجالسنا على الشراب أنى ضربت برتو الشهير الذي قد تغني بذكره الشاعر الفريد ديفينى فصرت موضع الاعجاب ومحط التكريم ووصفني المشير ديزيريه فى أحد تقاريره الرسمية بأنى « أذى ضرورى للجيش وبلاء لا بد منه » ، وانضم إلى فرقتنا فتى حديث من أسرة نبيلة ، ذو جمال وذكاء وفتنة ، فزعزع من مكانتى ، وتهدد سلطتى ، ولكنه شرع يخطب ودى فتلقيته بانقباض وجفوة ، فأحجم عني واستشعرت له نوعاً من البغض الكامن ، ولما رأيت حظوته لدى النساء ألحّ على الكرب وأكل الغيظ شغاف قلبي ، ثم التقينا فى مرقص بدار سرى من أعيان أورانج ، وقد خصته ربة الدار — وكانت صديقة لى — بالحفاوة والعناية والملاطفة ، فدنوت منه وهمست فى أذنه بلفظ جارح ، فثار علىّ ثورة الأسد ، ولطمنى على وجهى ، فقبضت على قائم سيفى ، وأغمى على النسوة ، فافترقنا لنلتقى فى الليلة نفسها بميدان المبارزة وكان الوغد إذ ذاك قليل الاكتراث بالموت ، فحدثت نفسي : « أية فائدة هنالك فى انتزاع الروح من شخص لا يجعل للحياة شأناً ولا يقيم لطول العمر وزناً ؟ »

فقلت له : الظاهر أنك غير متأهب للموت الساعة وأراك تستعد للقاء صديقتك وما كنت عن ذلك بنائمك

فأجابنى : إنك لا تمنعنى من ذلك . وعلى كل حال فستبقى لك علىّ طلقة تطلقها متى شئت وسأبقى أبداً مستعداً للاستهداف لها تحت مشيئتك

فأخبرت الشهود أني لا أريد الاطلاق اليوم . وبذا انقضت المبارزة وفقاً لقانونها [1] ثم اعتزلت

(١) وفقاً لقانون المبارزة لا بد أن يكون اللاطم أطلق وأخطأ

الأربعة فى مغانى باريس ومباهجها أمتع الروح والجسد بين غوانيهـا ، ولشد ما ندمت على أننى لم أستشره وأشركه فى أمرى ! فلعله كان ينهانى عن طيشى واندفاعى وقد جلبا سعادتى وشقائى ؛ فلما بلغنا ضاحية ڤوكويسون على مقربة من باريس استأذنت سيلفان أن أسبقه إلى العاصمة حيث كان يقطن خصمه فى بولفار دى نوايلس ، لأتعرف إلى الزوجين قبيل وصوله ، وأمهد السبيل لبلوغ أمنيته ، فقبل وقال :

— حسن ! سأتخلف كما أشرت ، فأنت كشافى وطليعتى ونذير الهلاك إليهما ، ولكن احذر أن تقع فى شباك جمال تلك الأنثى فتفسد علىّ السعادة التى تغذينى وهى اختطاف روح زوجها من بين جنبيه . فلم أعقب على فكرته بجواب واكتفيت بابتسامة حائرة رسمتها على شفتى يد الاشفاق والخوف معاً ، وإن كنت أتلهب تلهفاً وأحترق تشوقاً لرؤية الزوجة التى ظننت أننى أسعى لإنقاذ بعلها من الموت المحقق . وكان سيلفان قد دلنى على معالم القصر ولم يبح لى باسم صاحبه

ولما بلغت القصر قادنى أحد الخدم إلى حجرة المكتبة ، ليعلن مقدمى ، وكانت الحجرة مزدانة بكل آلات الترف ، فالجدران مبطنة بقماطر الأسفار ، محلاة بالتماثيل والدمى ، وعلى صُفَّة الموقد المنحوتة من المرمر المسنون ، مرآة عظيمة ، والأرض مفروشة بالدرانى والطنافس . وأخيراً فتح الباب ودخل رجل بهى الطلعة جميل الصورة يناهز الثانية والثلاثين من العمر فتأكدت أنه خصم سيلفان ورب الدار . فما كان أعظم حيرتى عندما تقدم إلىّ محتضناً يقبلنى ! لقد كان هنرى بوردينوا كونت دى لاڤيسيل لافيه ، وصديقنا ورفيقنا فى المدرسة بنفسه ! فحاولت تسكين جاشى ، وزعمت لتبرير قدومى أننى عرفت مقره مصادفة ، فقدمت لزيارته . وجلسنا وأخذنا بأطراف الحديث ، فما لبثت أن وجدته كما عهدناه سهل الحديث ، عذب الكلام ، مرح الطبع ، خالياً من التكلف والتعمل ، فزادنى وحشة وهيبة وارتباكا . وكنت كلما هممت بمصارحته بسر زيارتى أرتج علىّ واعترانى خبال لا عهد لى به ، فلم تكن الخيانة من طبعى ، وإن كانت فى سبيل إنقاذ حياته ، وتخييب آمال ذلك الوحش الرابض المتربص فى قوكريسون ولا يلبث أن يظهر على مسرح تلك الحياة الهادئة ليورد ذلك الصديق الفريد والزوج السعيد موارد التلف ، من أجل صفعة ساخرة سقطت جريمتها بالتقادم . وتأكدت فى تلك اللحظة أن الحياة مأساة معقدة بعيدة الغور وإننا لا نعدو أن نكون ممثلين مسخرين لأدوارنا التى نتقن لعبها على الرغم منا

وإذا بالكونتيس قد دخلت بغتة فأسرع إلى احتشامى وخجلى فقد كانت مفرطة الجمال ، ناعسة الطرف ، فارعة القد ، فقدمنى إليها الكونت بأحلى عبارات الاعزاز والترحيب وهما لا يعلمان أننى نذير الموت . فقد كنت كلما أمعنت فى الحديث تضاءل أملى فى إنقاذ الرجل لما أعلمه من غليان الغضب فى قلب ذلك الجبار المنتقم المتبرم بالحياة ، المحروم من الحب . وأخذت أنظر إلى الجدران فاستوقفتنى صورة تمثل مشهداً طبيعياً ولكن الذى أدهشنى من هذه الصورة لم يكن جمالها وبديع صنعها وإنما وجود ثقوب متجاورة فى أديمها على أثر طلقات نارية ، فقلت للكونت : تالله إنها لرميات مسددة !

فقال : أجل ، إنها رميات صائبة ! إنك لا شك تحسن الرماية مثلى

فسرنى انتقال الحديث إلى لباب الموضوع ، وتمنيت أن أجد منه مدخلاً لقصدى وقلت :

— أحسنها بعض الشيء . إني أستطيع أن أقرطس بطاقة من بطاقات الزيارة من مسافة عشرين خطوة ، بشرط أن تكون الندارة مما قد تعودت الرمي به

فقالت الكونتيس بلهجة المكترث بالموضوع : « حقًا ؟ » ثم التفتت إلى زوجها وقالت :

— وأنت يا عزيزى أتستطيع أن تفعل ذلك ؟

فأجاب : لعلى فاعل ذلك يوماً ما ! وعلى كل حال سأحاول هذا . على أني لم أكن فى أيامى السالفة بالرامى الأخرق ولا الطائش السهم ، ولكنه قد مضى الآن أربعة أعوام على آخر عهدى بالرماية . فأُسقط في يدى ، لأنى افترضت أننى قد أصل فى مفاوضتى مع الوحش المتربص فى آكام فوكويسون إلى تبادل طلقتين بدلاً من أن يدفع الكونت حياته ثمناً للطلقة المعهودة الباقية ديناً فى عنقه ، وأن يكون هو البادئُ بالطلقة فيصرع سيلڤان قبل أن يتمكن من إزهاق روحه . ولكننى تجلدت وقلت :

— حقًا ؟ إذا كان الأمر كما قلت فما إخالك قادراً على أن تصيب بطاقة على مسافة عشرين خطوة فإن الرماية — كما لا يخفى — تحتاج إلى التدريب اليومى ؛ وهذا ما نعلمه بالخبرة ، فإن أهملنا التمرين فقدت يدنا الحذق والتسديد . وقد أذكر أن أمهر من رأيت من الرماة كان لا يزال يتمرن كل يوم ثلاث مرات قبل تناول غدائه وكان قد تعود ذلك تعوده الأكل والشراب

فقال الكونت : وماذا كان من مهارة ذلك الرامى وحذقه ؟

قلت : لقد كان وحقك ، ربما أبصر بالذبابة على الجدار — إنك تبتسمين يا كونتيس كالمرتابة فى صحة قولى — أقول : لقد كان ربما أبصر بالذبابة على الجدار فيصيح بخادمه قائلاً : « جوزيف هات لى المسدس » فيأتيه جوزيف بالمسدس فيطلقه فاذا الذبابة قد انسحقت على مكانها ؟

قال الكونت : هذا مدهش ! وماذا كان اسم هذا الرجل ؟ . قلت : سيلڤان

فصاح صديقى منتفضاً فى مجلسه : سيلڤان ؟ أتعرف سيلڤان ؟

قلت : كيف لا أعرفه يا صاحبي وقد كان صديقى الحميم ولا يزال ؟ لقد عاشرنا عشرة الأخ إخوته ، على أنه قد مضى الآن أسبوع على آخر عهدى به أوَ تعرفه أيضاً ؟

قال : إذن لا يزال على قيد الحياة !

قلت : وعلى قيد عشرين ميلاً من باريس وأظنه يقيم فى ضاحية ڤوكويسون

فامتقع وجه الرجل وجمد فى مكانه كأنه أصيب بطعنة نجلاء في ظهره . فأدركت الكونتيس ماطرأ على زوجها من التغير وقالت : أتعرفه أنت أيضاً يا عزيزى ؟ فقال : أجل أعرفه حق المعرفة ! ألم ينبئك قط بنبأ عجيب وقع له فى حياته ؟

قلت : أتشير يا هنرى إلى حادثة اللطمة التى أصابه بها رجل نذل خسيس فى بعض المراقص ؟ (قلتها لأبعد عن ذهنهما دنوهما من الخطر وأثبت لهما جهلى المطلق بما ينتظر الزوج)

فقال : ألم يصرح لك باسم هذا النذل الخسيس؟

قلت : كلا إنه ما ذكر لى اسمه قط !

فابتسم الكونت ابتسامة ساهمة حزينة وقد غادره بشره ، وحدثته نفسه بمض ما وراء الأكمة وقال وقد عراه أشد الاضطراب والانفعال : أنا هو ذلك النذل

فقلت متصنعاً الأسف : معذرة ياعزيزى وعفواً فقد أخفى عنى الأمر

وكانت المائدة قد أعدت وقال الخادم فى أدب : «إن الطعام ينتظر آكليه ياسيدتى الكونتيس [١]» فنهضنا واكتفيت فى هذه الليلة بهذا القدر من الكلام الذى هيأته لي المقادير ، وقلت فى نفسى وأنا أقوم متلكئاً لأجلس على خوان هذين الزوجين :

إلى هنا ينتهى مشهد من مشاهد تلك الرواية ، وإن الرواية لم تتم فصولاً . وقضيت فى ضيافتهما أسبوعاً وأنا لا أملك أن أفاتحهما فى نبأ الكارثة التى سترميهما بها فوكريسون

وفى ذات مساء خرجنا على خيل لها نتنزه فى غابة بولونيا وشرع جواد الكونتيس يمرح ويتموج فى عطفيه ويتنزى ، ولعله لمح فرساً راقه منظرها ، وكنا فى موسم الربيع عند ما يحلو للذكران من سائر المخلوقات أن تمشق لتنتج فتضاعف عدد الضحايا من الطير والحيوان والإنسان . فذعرت الكونتيس وترجلت وأسلمتني زمام جوادها وعدنا إلى القصر فى مركبة ، غير أنا سبقناها إليه إذ كانت فضلت السير على الأقدام لقرب المسافة بين الغاب والمثوى ، ولتذهب الروع الذي أصابها من «حنجلة [١]» الحصان . فلما بلغنا ساحة الدار بصرنا بمركبة وخبّرنا أن رجلا فى انتظارنا بغرفة الطالعة ، فسألت قبل صاحب القصر من هو وما اسمه فقيل لى : إنه أبى أن يتسمى واكتفى بقوله إن له مع الكونت حديثاً فى مسألة خطيرة ، فلم أرتب طرفة عين فى أنه عدونا استبطأنى فجاء يتقاضى روح صاحبى من زوجته ومنى . فأسرعت إلى الغرفة فألفيت فى الظلام رجلا أشمت أغبر لا عهد له بحاق ذقنه منذ أسبوع ، وكان واقفاً قرب صُفةِ الموقد فدنوت منه وتفرست فى وجهه وإذا ظنى لم يخطئْ قيد شعرة : سيلفان نفسه ! !

فصحت قائلاً : سيلفان ! ولا أنكر أنى أحسست إذ ذاك أن شعر رأسى يقف وينتصب ، فما أدراك بحال الكونت ! ولكن سيلفان كان لبقاً وخبيثاً ، فلم يبد حقده علىّ بعد أن تركته يتقلى ، وقنع بأن حدجنى بنظرة أبلغ من العتاب وأشام ، تفسيرها : لقد طاب لك المقام يا غادر ؟ وليتك على الأقل لم تُنفضِ بسرى . وبادره الكونت بالتحية ودعاه إلى الراحة والاستحمام والعشاء . فأجابه :

— ما لهذا جئت أيها السيد النبيل ، فإن مأموريتى لا تمكننى من قبول ضيافتك . والرجل لا يؤا كل من يعزم مصمماً على قتله

فقال الكونت متجاهلا : على رسلك ! استرح أولا ثم افعل ما شئت فإن فى الوقت سعة

فقال سيلفان وهو يحرق الأرّم : إن لى عليك طلقة ، وقد أتيت أطلقها فهل أنت مستعد ؟ وكنت من فرط هلعى وروعتى لا أفكر إلا فى مقدم الكونتيس أرجوه وأخشاه

(١) يقول خادم السفرة Madame la Comtesse est servie أى تمت لها الخدمة باعداد المائدة

(١) الحنجلة كالزعزعة والخلخلة والمضمضة

وكان مسدس سيلفان بارزاً من جيبه . وكأنني قد صعقت واستحلت صخراً لا أملك أن أفوه بكلمة ووددت لو أنقض على هذا الشيطان المتجسد رجلا لأعدمه الحياة بحجة الدفاع عن النفس أمام الخطر المؤكد . ولكن الغدر لم يكن من طبعي . وكان الكونت أسرع من البرق قد قاس اثنتي عشرة خطوة وأخذ موقفه في أحد الأركان ورجا خصمه أن يسرع باطلاق مسدسه عليه قبل قدوم زوجته. فتردد سيلفان لحظة عاد إليّ فيها بعض الرجاء ، ولكنه طلب نوراً فأحضرت الشموع وأغلقت الأبواب ، وأمر الكونت ألا يدخل علينا أحد ثم رجاه أن يطلق مسدسه . فاستخرج سيلفان المسدس من جيبه ثم صوبه نحو صدر صديقي وسدده وكنت أعد الثواني . وتذكرت الكونتيس ونحن في تلك الحجرة التي كانت روضة من النعيم فانقلبت في لحظة قاعة للاعدام . ومرت بي دقيقة أهول من يوم القيامة وعند ذلك فتح الله عليّ وحلت عقدة من لساني ونطقت متلطفاً :

يخيل إليّ أن هذه ليست عبارزة ، ولكنها جريمة قتل مصحوبة بسبق الإصرار والترصد . وأنت يا صاحبي سيلفان لم تتعود والله أن تفاجيء بتسديد سهامك إلى صدر رجل أعزل أو رأسه . فخفض الشيطان يده وقال :

— عاذا تفتي إذن وأنت صديق الطرفين ، كما أرى ؟ ولا أخفي عنك أن الكونت رماني وأخطأ فالدور عليّ . قلت : أولى لكما أن تبدآ الأمر من أوله مرة أخرى وإن كان مديناً لك بطلقة :

فقال : نزلت على إرادتك ، فهيا بنا نعيد القرعة لنعين البادئ ، فأحسست كأن الأرض تميد بي وتتأرجح . ثم إنهما حشوا مسدسيهما ، وعملنا القرعة ثم اقترعا فوقعت للكونت النوبة الأولى كما حدث في القرعة السالفة[1] ففرحت بغتة ، ثم عدت فذكرت الفرق بينهما في الرماية فان صاحبي مضى عليه أربع سنين لم يتمرن خلالها مرة ، أما خصمه فكانت الرماية غذاءه اليومي

وقال سيلفان عند ظهور القرعة : ما أسعد حظك يا كونت ! وتناول هنري مسدسه وأطلق فأخطأه وقال : الحمد لله إنها لم تصب ضيفي ؛ فانني أفضل الموت لنفسي على أن أمس شعرة من رأس من أقبل عليّ زائراً ولو كان مصمماً على قتلي . وكنت أعتقد صاحبي مخلصاً في قوله . وتمنيت لو تصل تلك المكرمة إلى أعماق قلب سيلفان فيخجل ويعدل ، ولكن أنى لأنسال ابليس أن تصفح أو تنسى ؟ فقد رأيت سيلفان كأنه الشيطان فرفع يده بالمسدس يسدده ... وفي تلك اللحظة فتح الباب بغتة ودخلت الكونتيس ، فأبصرت وجهها يتوهج من الوجد توهج القبس المشتعل . أما الكونت فقد عاد وجهه من تأثره أبيض من منديله . وصاحت الزوجة الشابة صيحة منكرة وألقت بنفسها على عنق زوجها ، فأعاد حضورها إلى زوجها كل قوته وجلده وقال لها : مابالك ياحبيبتي ! ألا ترين أننا نمزح ؟ ما أشد فزعك ورعبك ! إذهبي فاشربي كوبة ماء ، وعودي إلينا فسأقدمك إلى صاحبي القديم وزميلي . فلم تفلح كلماته هذه في إزالة الشك منها وبقيت مرتابة حيرى فالتفتت إلى سيلفان الرهيب وقالت له :

— خبرني بالله أحقاً ما يقول زوجي ؟ أحقاً أنكما تمزحان ؟ إن غريزتي لا تخطئ في رعبي

(١) هذا يؤيد رأينا في قانون المبارزة الذي يقتضيه السياق

وكانت كلمات لو تليت لصخر لذاب وتفتت ، ولو قرئت على حديد للان وسال

ولكن سيلفان الذى لم يعرف قلبه الشفقة قال :

— إن زوجك يا سيدتى لا يزال يمزح ، فلقد لطمنى مرة على حر وجهى وهو يمزح ، وأطلق علىّ رصاصة أنفذها فى قبعتى وهو يمزح . والآن إذا رمانى فأخطأنى إنما كان يمزح ، فلا حرج علىّ الآن إذا رأيتنى أيضاً أريد أن أمزح

وعلى أثر هذه الكلمات رفع مسدسه ليسدده إلى صدر صاحبى فألقت الكونتيس بنفسها على قدميه فغلى الدم فى عروق وهممت أن أنشب أظفارى فى عنقه حتى تزهق روحه قبل أن يشهد زوجها مصرع كرامتها ولكن الكونت تعجاني بنظرة غاضبة وصاح بها :

— انهضى يا ماتيلده أما تستحين ! أما تخجلين ؟ وأنت يا سيدى هلا كففت عن السخر والاستهزاء بامرأة ضعيفة مسكينة ؟ مسكينة ! خبرنى أأنت مطلق أم ممسك ؟ فقال سيلفان : بل مطلق

وفى تلك اللحظة أطلق ، وأصاب الكونت فى رأسه ، فخر صريعاً وكانت الزوجة قد أغمى عليها من الذعر وهمّ سيلفان بالخروج بعد أن انحنى يحيينى فقلت له : مكانك واقترع . وخرجت القرعة لي : فتناولت مسدس الكونت وصوبته وأطلقت طلقة نجلاء سبقتني إلى تسديدها يد العناية واخترمت صدره . وتكوّم كالأفعى وخاصت إلى ساحة القصر وناديت الخدم والحوذى الذى جلبه ونقلنا الكونتيس إلى فراشها وعهدت إلى وصيفتها أمر العناية بها حتى يدركها الله بلطفه والطبيب بعلاجه . وركبت المركبة فانطلقت بى قبل أن أستفيق من تلك الغمرة ، إلى دار المحافظة فحييت الضابط المتوب وأفضيت إليه بكل ما جرى . فدوّن أقوالى وانتقل إلى مكان الحادثة وطلب من قاضى التحقيق أن يفحص الاتهام ويمحص الأدلة .

وشهد خادمان بما جرى كما رويته ، فأطلق سراحى وقرر بأن لا وجه لاقامة الدعوى فقد كانت المبارزة مباحة فى الفرق بين رجال الجيش . وقال قاضى التحقيق وهو يهنئنى بالنجاة من غدارة ذلك الوحش القاسى : دقة بدقة . إن القانون فوق العرف ، والعدل فوق القانون . وبعد شهر علاج وعناية فائقة ، استعادت الكونتيس وعيها وقوتها . وكانت إجازتى قد انتهت فاستأذنتها فى الانصراف ، وأنا أحسب أنها تقرن مقدمى عليها بشر ما أصابها فى أعز إنسان لديها . ولكنها استمهلتنى واستبقتنى قائلة : لقد فقدت بعلى وحبيبى ، ولم يكن لك فى مصابه يد ، بل لقد تأرت له فى التو والساعة ؛ وياليتك سبقت القدر بمسدسك إلى خصمه وخصمك

ولكننى علمت أنها تكون جناية قتل لا مبرر لها ، وأن المرحوم لم يكن ليغفرها لك لما أعلمه من إبائه الغدر بطبعه ، فان شئت جددت إجازتك ولو أياماً معدودة .

قلت لها : بأى عذر ؟ وإن إجازة الضابط لا تمتد إلى أكثر من ثلاثين يوماً ، إلا لعلة واحدة . قالت : وما هى ؟ قلت : الزواج . قالت : فليكن هذا عذرك على بركة الله . قلت : إنها لأكذوبة غليظة فلا أنتوى أن أعقد على عروس لم أخترها وما زال قلبي خالياً . قالت : من يدرى ؟

فاكتفيت بهذا التلميح وطفر قلبي فرحاً . وتناولت قرطاساً وقلماً وكتبت طلبى ، فقالت وهى تداعبنى مداعبة حزينة

— وإن سألوك عن اسم تلك التي ستسعد عشرتك ، أولا يسألونك ليشاركوك أفراح زفافك ؟

— قلت : هذا الذي لا أعلمه وكاد القلم يقع من يدي . قالت : أكتب : الكونتيس بورنيواه دي لافيسيل لافيه ! فأهويت على وجهها ويدها وعنقها أقبلها وأشم رائحتها العطرة ، وأذرف الدمع السخين من فرط سعادتي وحزناً على سالفي . وهنا سكت ادوارد بيون ، فظننت أنه وصل إلى آخر القصة ولكنه عاد فقال : « وقد قضينا ثلاث سنين أسعد ما يكون زوجان وأدهشتني سرعة النسيان الذي جر ذيوله على ذاكرة الزوجة . وكنت أغالب نفسي كلما شعرت باللوم يتعثر في خيالي ، فإنها لم تنس قرينها ، إلا بسببي . والمرأة إن فقدت الأمل في أحب رجل إليها ، فإنها بحكم الطبع والطبيعة ، تبادر إلى التنقيب عن غيره لتتعلق به ، وقد عشنا في جو من الصفاء والحب لم تشبه شائبة ، غير أنها كانت أحياناً ترى مثل ما يرى النائم أشباحاً ترعبها فتنهض مذعورة تبكي . فاذا ما فتحت عينيها ورأتني بجانبها عاودها اطمئنانها والتصقت بي ، كما يلصق الطفل الخائف بصدر أمه . وقد أدهشني أنها كانت تحتفظ بكل ما في القصر من ذكريات المأسوف عليه زوجها الراحل ، فقيدي وفقيدها ، فهذه صوره الفخمة في البهو وغرفة الطعام ، وتلك ثيابه الغالية وبزته العسكرية على المشجب ، وكتبه وأوراقه لا تزال حيث تركها ليلة مصرعه ، وخيله المطهمة ما تزال في اصطبلها العامر بأمهر السائسين وأجود العلف

وفي يوم من الأيام نهضت زوجتي وجمعت الخدم في قاعة الاستقبال وأمرتهم أن يقلبوا القصر رأساً على عقب ، فنقلوا تصاوير المرحوم وثيابه وأسلحته وكتبه وأخفوا كل ما كان يذكرها بشخصه ؛ وقالت لي وهي ترتجف : قد آن لرب الدار أن يحل منها محله ، كما حل من قلب زوجته ؛ فامتعضت في قرارة نفسي ولكنني وافقتها في تنفيذ مشيئتها وقديماً قالوا : « إرادة المرأة من إرادة الرب[1] » والقول قولك وأنت الآمرة الناهية في قصرك

وبعد هذا الانقلاب بشهر واحد ، صحوت من نومي وكنت أعتزم أن أصحبها في نزهة خلوية فقبلتها قبلة الصباح ، ولكن شفتي ارتدتا جامدتين فقد كانت جثة هامدة وقد أسلمت الروح ، على ما زعم الطبيب أثناء النوم ، بعد رؤيا فاجعة سببت بغتة وقف دقات القلب . ومضت على هذه الحوادث أعوام كانت أمر وأدهى ما حييت من العمر ، فاشتغلت بالزراعة وجعلت أثناء ذلك آسف على ما فات من لذة العيش في الجندية ، وآسى على ما سلف من حياة الزواج والحب . أما زوجها الأول وخصمه الذي قتله ، فقد دفنا متجاورين

محمد لطفي جمعة

---

(١) مثل فرنسي سائر Ce que femme veut, Dieu le veut

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

من تاريخ الهند

راندا

بقلم محمد محمد مصطفى

.. وانقلب رسول أمير « جوبال » إليه يحمل نبأ رفض « راند » ملكة البنغال الزواج به

واستطار الأمير إذ تنهدم آماله ، وأقسم ليدخلن بلادها فاتحاً غازياً

ونفخ فى صور الحرب ..

وانقضت جحافل الأمير على جيوش الملكة والتحم الفريقان عند حصن « ثانيا » وانتشر جند العدو فى الوادى يعمل يد النهب حتى ترك المنطقة التى احتلها خراباً ..

وانكفأ شيجارا قائد الملكة إليها راجياً منها أن تفتدي بنفسها بؤس الشعب وويلات الحرب قائلاً لها بصوت يستدر روافد الدموع :

— لو رأيت إلى الدماء تسيل فى ميدان الحرب ، ولو سمعت إلى أنين الجرحى وبكاء الأم ونواح الزوجة وصياح الولد ، لأخذك الجزع على مصير شعبك

— إنى لا أكره أن أكون زوجة الأمير ، ولكنى لا أريد خداعه . ولكم أود لو أنفض قلبى من حب حارسى أبد الدهر ، ولكن الأمر خرج من عقلى إلى قلبي

— تستطيع مولاتى أن تستخلص عقلها من بين يدى هواها ولا تدع للحب سلطاناً على نفسها

— أبلغك أيها القائد نبأ من أحب فدفع عن قلبه هواه ؟

قال : لا

قالت : فوالله لو ملكت أن أنزع طيفه من قلبي لفعلت

***

وسكن كل شيء في القصر الملكى لا يسمع إلا وقع خطوات حراسه ، ونام كل من فيه إلا الملكة فقد ظلت ساهدة الجفن تتقلب فى فراشها كالمحموم ، وكان الحب المكتوم الذى تحمله لحارسها قد أعياها وودت لو أفضت به إليه

ماذا يمنعها وقد علم الناس أنها مستهامة به ولم يبق من يجهل هذه النار التى تستعر فى صدرها سواه

وقامت إليه متنكرة فى بردة الليل ترتدى ثوب وصيفة ، ورمت بطرفها فرأته يمشى إلى شاطئ غدير القصر فدلفت إليه ، وما وافت مكانه حتى ترنحت كأنما تمشى على الصراط ، وكلمته في رقة اهتزت لها أشجار الحديقة طرباً وقالت إنها وصيفة الملكة أصابها الأرق فجاءت إلى الحديقة لتقتل بين أشجارها ما بقى من الليل

ومضت تحدثه عن الجو والحرب ، وقالت فجأة :

— مرت بك الملكة ذات يوم فعجبت لهدوئك ولعينيك اللتين تغمران من ينظر إليهما بسحر هائل ، وحدثتك فلم تضطرب ، وحاولت إغراءك على النظر إليهما فيئست وهى التى تنهبها نظرات الجنود إذا مرت بهم ، فكيف كان ذلك ؟

— تلك طبيعتى لا أحفل بشيء سوى واجب حراستها كما ترين

— أتحب الملكة ؟

— إنى أجلها لعدلها ولأنى جندى فى حرسها

— فإذا ما أمرتك أن تفتح لها جوانب نفسك وتجلسها فى سويداء قلبك ؟

— .. مالى إلى ذلك سبيل ؛ ولو دخلت الملكة إلى قلب حارسها البسيط لضاق بجمالها وملكها وقلوب الملوك والأمراء المتهالكين على أقدامها ، وإنى لأقنع بكوخ يحوينى وزوجة أنظر فأجد رأسى يعلو رأسها — ما أظنها تريدنى إلا الزينة فى مجلسها ودمية لقصرها ، لا أملك لنفسى حقاً وهى تملك كل حق ، فإذا خاست أو غدرت فذلك من أحكام نفسها

— أترفض يداً تمتد لرفعك إلى عظماء رجال البلاط فى القصر ؟

— ما على وجه الأرض شىء أبغض إلىّ من مجد ينشأ على كتف امرأة

قالت : من أى صخرة من الصخور أو هضبة من الهضاب نحت هذا القلب الذى ينطوى عليه صدرك ؟

وزفرت زفرة كادت تتساقط لها أضلاعها ، وعادت من لدنه كما يعود القائد المهزوم من ساحة الوغى لا تملك حتى دمعة تفرج بها عن نفسها

* * *

وتلقتها وصيفتها بقلب هالع وقالت تخفف عنها ما بها :

— ماذا يعنيك يا مولاتي من أمر جندى في حرس رياضك ؟

قالت : « ذهبت بى إليه نفسى اللعينة فردها إلى صدرى حزينة باكية » وتهافتت على مخدعها ومضى الليل لم تطعم خلاله الغمض . وفى الصباح رحلت إلى قصرها في جنوب البنغال علّ قلبها يتبدل إذا ما أبدلت سكناها . وقضت ثلاثة شهور كانت تقاوم خلالها ناراً تستعر في صدرها وشوقاً كالجنون إليه ، وكانت كلما هاجها الوجد جلست إلى نفسها تسكب من عينيها الجميلتين قطرات لتطفئ هذا اللهيب الذى يتوهج من قلبها ؛ وسقطت مريضة وعلمت أنها مشرفة على الخطر ولا سبيل لها إلا جواره ، فرحلت إليه

* * *

وشعرت الملكة أن قلبها قد انخلع لما قيل لها إن القائد قد قذف بحرس القصر إلى ساحة الحرب ونظرت إلى القصر خلواً منه نظر الغريب الحائر إلى بلد حل به ، وتخاذلت أعضاؤها واستندت إلى متكأ وتمتمت بصوت خافت :

— أيخوض « نوجا » تلك المعارك التى يظللها الموت ؟

فاصفر وجه الوصيفة وتمتمت : نعم

قالت : إنى ليحزننى أن يموت

وقامت إلى الميدان تنهب الأرض وتنتقل من نجد إلى وهد حتى وصلت إلى جبهة القتال ، وعلمت بقربه من الخنادق الأمامية فاندفعت إليها كالظبية الطريدة تتخطى الأشلاء والدماء

وإذ رأته على جواده الأشهب ينثر الهلاك على جمع الأعداء نسيت ما لقيته فى سبيله من أحزان وآلام ، وجرت تستقبله بين ذراعيها لكنه أبعدها فى رفق زاده فتنة وزادها جنوناً

قالت بصوت يفيض أسى :

— ألا زلت يا نوجا على ضلالك القديم ؟

— نحن فى ميدان حرب لا ميدان حب . ولا يليق بملكة ...

— .. أيكون ملكى عقبة بينى وبين آمالى ؟

إننى فتاة يا نوجا وفى صدرى قلب هام بك ودفعنى اليوم إليك لأقول لك إنى أحبك وإننى لاقيت فى كتمانه عنك أوصاباً وأسقاما

ترى هل تضمر لى يا نوجا من الوجد مثلما أضمر لك ؟

— فإذا ما أقسمت غير حانث أنى لا أحمل بين جنبى سوى الإخلاص لذاتك

واستيقظت فيها كبرياء الملك وكبرياء الجمال فرأته أهون على نفسها من أن تذوق لأجله ألوان الشقاء ، وابتعدت بنفسها عن طريق الحب ونسيت أنها كانت مستهامة به فأمرت به أن يشرد فى آفاق البلاد

ومضت كليلة الذهن تقطع الطريق إلى قصرها وفى صدرها نار تحس أثرها اللاذع فى السويداء من قلبها

وقطع عليها العدو سبيل العودة فكمنوا لها وفروا بها لائذين بالتلال والآكام ، وهنالك على حدود البنغال أودعت حصناً تحوط ناحيتين منه بحيرة « الراجاديت » حتى تهيأ لها سفرة أمينة إلى قصر أمير جوبال

***

الشمس فى وقت الظهيرة بركان تنفجر من فوهته النيران ، وأخذ نوجا تحت خيوطها النارية يضرب فى بطون الوديان وقمم الجبال . وقلب طرفه يبحث عن ظل يتفيأه فعثر به على مرمى البصر تحت دوح يدور حول بناء شامخ كأنه درع مسرود

وما اقترب منه حتى سمع أنين فتاة متوجعة فدنا منه مترفقاً فى مشيته وقلب طرفه فلم يجد رائحاً ولا غادياً فاعتلى دوحة فرعاء وتدلى من غصن فيها إلى سقف البناء

***

تولى النهار وراندا فى معتقلها تتقلب على نار مما يساورها من آلام ، وتمخضت ثورة قلبها عن حب رابض يهز كيانها لحارسها الشريد وعظم يأسها وفنت حيلتها وباتت لا تقترح على دهرها شيئاً إلا رحمة لنفسها برحمة حبيبها ، وأخذت تنظر إلى ماء البحيرة بنظر ساهم وقد قام فى نفسها نزاع رهيب بين الإقدام على إلقاء نفسها فيه أو الابقاء على حياتها

وطرق أذنها صوت أقدام تقترب منها فأدركت أن جنود الأعداء قد أتوا لأخذها

وخفق قلبها خفقة الرعب ... والفرح لما رأت نوجا ... نعم نوجا بلحمه ودمه بين يديها يسألها ما شأنها وما مقامها فى هذا الحصن الغريب

ونفضت إليه جملة حالها

ورأى نوجا أن الشجاعة فى غير موضعها جنون ؛ فهناك حارسان مسلحان بالباب وليس ثمة طريق للنجاة سوى البحيرة

وحملها وألقى بنفسه فى الماء

وأخذت راندا ترقب الجهاد الهائل الذى يبذله ليصل بها سابحاً إلى الشاطئ الآخر وكانت تنظر إليه كما ينظر الأطفال إلى آبائهم وهم يضرعون

***

دب الشفق فى حاشية الأفق لا تسمع إلا دمدمة الرياح تطاحن رؤوس جبال الهند . ومشيا طويلا لا ينبس أحدهما كأنما قد انتقل سكون الليل إلى فؤاديهما ، وأضناها السير فحملها نوجا فودت لو ضل الفجر سبيله ليظل حاملها ما ظل الظلام

وبلغ قصرها وتسلل عائداً إلى ميدان القتال

***

سقط حصن ڤانيا وما حوله من القرى تباعاً

واستولى جنود العدو على جميع الخنادق المحيطة به

وشعر نوجا أنه قد بدل من نفسه نفساً غيرها فرأى الملكة بعين غير عينيه ، ورأى فيها التضحية له فازدادت فى نظره حسناً وملأته فخراً ، وهب يصول فى الميدان كالليث أوشك الصيادون على اقتناصه وانتشر من روحه إلى أرواح زملائه الجنود حمية هائلة فكروا على الأعداء بخيلهم ورجلهم

وانتهز نوجا ذعر العدو المفاجئ فضربهم الضربة القاضية واندفع وراء فلول الأعداء وهو واثق أن النصر لن يخطئه حتى انجلى آخر جندى عن أرض الوطن العزيز

* * *

وحفلت حياة نوجا الجديدة بما تحفل به حياة رجل عظيم

ألم يهزأ بالخطوب ويتخطى الأهوال . . ؟

لقد أبقى على الملكة وعلى تاجها . .

إذن « فليحى نوجا منقذ الوطن »

هكذا هتف الجنود

* * *

الشوارع يومئذ تزخر بجموع الشعب على جانبى الطريق والمدينة فى حلة زاهية من الأعلام وأخذ كل يرقب فى لهفة قدوم نوجا على رأس جيشه الظافر

وأكلت الغيرة قلب « شيجارا » قائد الملكة فأضمر له بين جنبيه شراً مستطيراً

ها هى ذى الملكة قد استوت على عرشها ترقب فى شوق قدوم رجلها — ها قد ابتسم لها ثغر الحياة وملأها القدر . . وترجل نوجا عن جواده واقترب منها متهلل الوجه . وهمس « شيجارا » فى أذن

سنيمة له أن الساعة قد دنت . وسجلت « راندا » أن الدهر قد بدأ يكفر بحسناته ما أسلف من سيئاته ، وصافحها نوجا فأحست بحرارة يده تلهب كل جارحة فيها ، وشعرت لذلك بلذة صغرت إلى جانبها عزة الملك ، وودت لو عاشت فى ظله تنعم برجولته الفذة وجماله . . .

وانشقت حناجر الشعب تهتف بحياة « نوجا » واهتز كيانها جذلا له وهمست فى أذنه بصوت حالم

— هلم إلى التاج يا نوجا أخلعه عليك لأعيش فى ظلك فتاة تهواك من أعماقها

وفزع نوجا لهذه المفاجأة وقال :

— جميل أن تهزأ بى الأقدار فتهيئ لى عرشاً أتبوأه وقصراً أسكنه . ويفتح الدهر عينيه فيسلبنيهما أشد ما أكون بهما سعادة ، وأعود من هذا القصر الكبير إلى كوخى الحقير . فاذا ما أخذت على الأقدار عهداً ألا تسترد ما وهبته فإنى فاعل ما تأمرين . . .

لقد أديت ما علىّ لك وللوطن لم يدفعنى لذلك التاج الذى تظنين أنى أصبو إليه . وهنالك على شاطئ غدير القصر سأواصل حراستى لك كما كنت من قبل

ورأت فيه الملكة من معانى الرجولة ما زادها به كلفاً ، فأخذت تحادثه وتدور حول قلبه علها تجد منفذاً لوصوله ، لكنها أخفقت

وبغتة أرسل الرجل الجامد أنة خافتة خالتها راندا زفرة حب

وعقد الهلع لسانها لما رأته يسقط بين يديها صريعاً فى دمه ، وتعالت الأصوات : القاتل . . القاتل

لقد كذبت راندا عينيها وإلا فكيف يموت حبيبها فى لحظة

* * *

ونظر إليها نوجا والدم يتدفق من ثقب سهم راش نفذ من ظهره إلى قلبه وفى عينيه بسمة الرضا فجثت راندا إلى جانبه جثو العابد فى صلاته ، وسرى من روحها الحزين تيار قوي انتقل إلى شعور الجميع فجمدوا كأنهم نصب

وأشفق أحد الجنود أن تخرج نفسها فقال لها : رحمة بنفسك يا مولاى . فأجابت شاردة :

— ماذا لقيت من الدنيا لأحرص على البقاء فيها ؟

واعتمدت ذراعه حتى بلغت غرفتها وتهالكت على مقعد ، وقد شعرت أن نفسها تتسرب من بين جنبيها ، وظلت بين دموعها وأحزانها حتى انبلج الصباح وسقط خيط من شعاعه إلى جبهتها الساهمة فإذا بها بيضاء العارضين متجمدة الوجه كأنما مرت على جلستها سبعون عاماً أو تزيد

واستبدت بها الذكرى وذهب بلبها الحزن ، فأخذت تهيم على وجهها فى المدينة وما جاورها تسأل الغداة والروح : مافعل الله بحبيبها . والناس بين مشفق راث لا يعرفون كيف الجواب عما يسألون

* * *

ومر أحد الرعاة يوماً بمقبرة المدينة فرأى بينها امرأة قد احتضنت قبراً جديداً فارتاع لمرآها وسألها عن شأنها فلم تجبه ، فدنا منها وقلبها فإذا بها جثة باردة ... يا لقسوة القدر !!

إنها الملكة !

محمد محمد مصطفى
بإدارة مدرسة البوليس

كل ثوب مصرى علم من أعلام الحرية
تغزلها وتنسجها لنـــا
شركة مصر للغزل والنسج
وتبيعها جميلة متينة رخيصة
أطلبوا منتجاتها من
تجار المانيفاتورة بالقطر المصرى

النافذة

للأستاذ محمود خيرت بك

... نعم ياصديقى كانت تلك النافذة موضع الداء والدواء . وكنت وأنا متجه فى الصباح إلى عملى أجدها مقفلة فأسير قدماً لا تتحرك لها نفسى ولا تأخذ كثيراً أو قليلاً من التفاتى . وكان يستوى عندى أن أجتاز الزقاق المطلة عليه أو أن أسلك طريقاً آخر

وكثيراً ما كنت أسمع من إخوانى أن فى الحياة قوة خفية تسوق الانسان أحياناً إلى حيث لا يريد أو تدفعه إلى عمل هو بعيد عن التفكير فيه ، فكنت أثور عليهم وأحتد متعصباً لرأيى فى أن الإنسان بحواسه وعقله مسيطر على أعمال نفسه حر فى حركاته ؛ حتى إذا كان يوم تهيأت عنده للذهاب إلى الديوان أخذت طريقى إليه دون أن أجتاز ذلك الزقاق . ولكنى بعد إذ تركته خلفى بنحو أربعين متراً انكفأت راجعاً وأنا أحس فى أعماق نفسى حافزاً إلى العودة بغير أن أقوى على دفعه . وما كدت أسلك الزقاق بعد ذلك حتى وجدت النافذة مفتوحة وسمعت كأن بالغرفة حركة فوقفت أمامها لحظة ثم استأنفت سيرى

وإذا كانت ساعات العمل بالديوان قد أنستنى تلك النافذة وما كان من أمر عودتى إليها رغماً منى ، فإننى لما حان موعد الانصراف وجدت قدمىّ تسبقاننى إليها كأن بها قوة مغناطيسية تجذبنى نحوها . وكانت على ما عهدتها فى الصباح فتركتها إلى منزلى وأنا أفكر فيها

وقد بلغ من أمرى أننى كنت أتمنى كل يوم لو أن ليلتى لا تطول فأسارع إلى الوقوف تحت تلك النافذة وأنا ذاهل مشرد أشعر فى ضباب خواطرى بشىء مشوش لا أتبين حدوده ولا أصل إلى فهم معناه

ما كانت تلك النافذة إلا إطاراً خلا من صورته ، أو عيناً مفتوحة من عيون تلك الغرفة ، ولكنى لا أستطيع أن أنفذ منها إلى قرارها

وكنت على عادتى أمرّ من أمامها فلا أسمع ولا أحس شيئاً ، حتى طرق أذنى ذات يوم صوت من داخلها ناعم أغن فقلت لا ريب فى أنه صوت ربة الدار وقد امتلأ منه مسمعى وأخذ يلعب بى كما تلعب الراح بالشارب

وكثيراً ما كان وهمى يحاول أن يصورها لى ، فأضحك على غفلتى إذ قد تكون صورة ناطقة بالدمامة وإن خدع صوتها السامع كما يخدعه صوت الكروان . ولكنى أعود فأكذب خيالى لأن القبح لا يتلازم معه جمال الصوت ، ولأن الأقدار التى تخلق الجميلة قل أن تبخل عليها بمثل هذا الصوت العذب الرخيم

وعند ذلك ينفسح لعينىّ أفق الخيال من جديد فأراها معجزة من معجزات الحسن وآية من آيات الفتنة ، وكأننى أنظر إلى عينيها وخديها وقدها فلا يصادفنى إلا لحظ ساحر وورد ناضر وغصن متأود مياد ، حتى كنت إذا مررت أمام دارها أكاد أهم باقتحام بابها لأملأ عينى منها وأضع حداً لهواجسى التى كانت تزيد فى عذابى

وبينما أنا ذات يوم أجتاز ذلك الزقاق سمعت حركة عند النافذة ، فما أن رفعت بصرى إليها حتى خفق قلبي وساخت روحي لأنها كانت فوق ماتخيلت ؛ وكانت تسقي أصيصاً به غصن يحمل قرنفلا ، فلما أبصرتني غلب عليها الحياء وحاولت أن تتراجع فاندفع الأصيص يهوى من فوق ولكنني تلقفته قبل أن يصل إلى الأرض . ويظهر أنها ارتاعت خشية أن يصيبني ، فلما رأتني أحمله أسرعت إلى الباب ومدت من فجوته ساعداً بضاً كالعاج تتناوله وهي تقول : « كتر خيرك » . قلت لها : « بس كده ؟ » وعند ذلك برزت لي برأسها الجميل وناولتني قرنفلة قبلتها وشممتها ، فأخذت تركز فيّ نظرات طويلة كلها فتنة وسحر ، وجسمها يرتجف وأنفاسها تتلاحق . ثم أسرعت ترد الباب رويداً رويداً ولكنها عادت ففتحته وكنت لا أزال في مكاني حائراً ذليلا فقالت لي : « كفاية كده » ، وهي تبتسم ثم ... اختفت

ولقد أخذت مجلسي أمام مكتبي وأنا لا أشعر إلا بأنني في الزقاق أحدّق في النافذة وأتلقف الأصيص ... ثم تلك القرنفلة وتلك الابتسامة العذبة وفيها كل أسباب الغبطة ومعاني الرضى . على أنني انتبهت من حلمي والقرنفلة لا تزال بين أناملي فقربتها من عيني وثنى أرويها بدمعي وأمطرها قبلي ، ثم أخذت أتأملها وقد خيّل إليّ أنها فرع من ذلك الغصن اللدن الناعم يحمل إلى أرج أنفاسها . وبعد ذلك ينتقل بي تأملي إلى أنها زهرة لا تعمر أكثر من يوم . فهل ما بدأت أشعر به من إقبال الحظ لن يتجاوز هذا المدى ؟ أم أنها ستمنحني زهرة أخرى أشهى منها هي زهرة الحب ؟

أصبحت هذه الفتاة غرامي وشغلي ، وأنا كلما مررت تحت نافذتها شملتني بابتسامة أو ألقت إليّ زهرة ، أو أرسلت لي في الهواء قبلة فأذهب إلى عملي نشوان سعيداً

وكثيراً ما كنت أراها في الصباح بعد حلم نعمت بطيفها فيه حتى كأنني لم أستيقظ منه . وقد مضى على ذلك شهر وأنا أستقبل عند مطلع كل شروق شمس وجهها الصبوح تبعث في نفسي نشوة جديدة تزيد في ناري وتضاعف حرقتي فأتمنى لو أنني أصل معها إلى آخر كتاب الهوى الذي نتبادل مطالعته كل صباح ، حتى إذا غلبني الوجد وخانني الجلد عولت على أن أضع بينها وبيني حداً بالزواج

وكانت سنها لاتتجاوز سبعة عشر ربيعاً ، فهي إذن لا تزال عذراء ، كما أنها لم تفتح قلبها لغيري وإلا كانت أهملتني وصدفت عني . فاستقر هذا الرأى في نفسي وأرجأت تنفيذه إلى الغد

وقطعت تلك الليلة مضطرباً أتقلب في فراشي وأقلب ما فكرت فيه على كل وجوهه إلا وجهاً واحداً هو : من عساها أن تكون ؟ ومن هم أهلها وعشيرتها ؟ نافراً من محاولة البحث في ذلك . إذ ماذا يهمني من نسبها مهما اتضع أو مالها مهما ارتفع وما أردتها إلا لذاتها : لجمالها وسحرها وفتنتها

وقد عولت عند الصباح على ألا أسلك ذلك الزقاق لأتفرغ إلى إعداد نفسي لتحقيق تلك الغاية ، وكذلك عند عودتي لداري . وبعد أن ارتحت في مضجعي قليلا قمت فقصدت منزلها ، وأنا أهتز من الفرح بلقياها

ولكنني ما كدت أدنو منه حتى ألفيت نافذتها مغلقة وعلى الأرض من تحتها ذلك الأصيص مطروحا مهشماً ، فانقبض صدري وأظلمت الدنيا في عيني . على

أنى أخذت أطرق الباب طرقاً متوالياً فلم أظفر بجيب ، وعند ذلك أقف مبهوتاً حائراً أسائل نفسى لم ألقت هكذا بهذا الأصيص ؟ وإذا كانت قد عزمت على الرحيل فلم لم تكاشفني به وأنا أمر أمام نافذتها كل صباح ؟ ثم أقول لابد أنها فوجئت بهذا السفر وأنها انتظرتني ، فلما لم ترنى كمادتها لم تر إلا أن تلق بوعاء زهرها ليكون شاهداً على انتظارها ويأسها

وبينما أنا أطرق البـاب أطلت عجوز من منزل قريب وقالت : إن أهل هذا البيت انتقلوا منه . وعند ذلك دار رأسي وتصبَّب عرقي ولا سيما عنـد ما قالت لى إنها لاتعلم عنهم شيئاً لأنهم كانوا لا يختلطون بأحد من جيرتهم . وهكذا تحطم قلبي كما تحطم هذا الأصيص . وأخذت أرجع إلى تلك القوة الخفية فأراها هي التي جعلتني أنكص على عقبي يوم صادفت النافذة مفتوحة ، وهي التي جعلتني لا أمرّ من تحتها فى صباح هذا اليوم فترحل بغير أن أودعها ، فهى إذن التي أرادت بكل ذلك أن تسخر منى وتتسـلّى على حساب ألمى !

وأخيراً جمعت حطام تلك الآنية وحملته معى إلى دارى

كنت أذهب بعد ذلك إلى عملى وأنا أسلك هذا الزقاق لعل تلك النافذة تفتح يوما ما مصراعيها لتضم بينها نظراتى . وكنت أتمنى لو أن عينىّ تثبان من حفرتيهما إلى مصراعيها لتنظرا من خلال أخشابها أرض تلك الحجرة التى طالما نعمت بخطواتها

أما ذلك الأصيص المحطم فقد عنيت بصيانته فى قمطر كتبي . وكنت دائماً أملأ منه عينىّ كأننى أمام متحف يضم بقايا آنية قديمة ثمينة . على أننى استبدلت به سواه وأخذت أتعهد تلك الزهرة التى سقتها يداها . وكنت كلما انبثقت منها قرنفلة تمرونى هزة لا تلبث أن تتلاشى ، وقد حرمت تلك الأنامل الرخصة التى كانت تقطفها وتقذف إلىّ بها ومن خواطر الحب التى كانت تختلج فى صـدرها بسببى عند كل حركة من تلك الحركات

أما عملى بالديوان فقد أهملتـه إهمالاً ولذلك اعتزلته ، ولى من يسارى ما يكفيني . وقد ورثت عن أبوىّ نحو مائتى فدان من أجود الأرض بعزبة النخل ، غير بستان واسع مكتظ بمختلف الأشجار المثمرة

ولعلك تذكر يا صـديقى أنك يومئذ نصحتنى بذلك لأتولى شؤونها بنفسي ، ولأسترجع بالهواء الطلق ومناظر الريف ما ولّى من عافيتى على أثر تلك الصدمة التى كتمت عنك سببها

ولـكم حاولت بالعمل أن أنسى فأخفقت محاولتى . ثم أنّى لمثلى النسيان والجرح الذى أصابنى فادح لا يندمل ، فأخذَت قواى تنحلّ يوماً بعد يوم حتى اصفر لونى وشـحب وجهى وغارت عيناي وكاد جلدى يلصق بعظمي

وعند ذلك فكرَت عَمتى فى الـكتابة إليـك لتسارع إلى الاتفاق مع طبيب قدير ينتقل إلىّ . فلما فحصنى صرّح بأنه لا يجد علة ّما لضيق . وساد بعد ذلك صمت قطعته بقولى : إنى أعلم أن علتى لا يرجى لها برء . فقال : أنت إذن تعرف علتك فلمَ لا تذكرها فلعلى أوفق إلى شفائك أو على الأقل إلى درء خطر هذا الضعف عنك . وعند ذلك عدت إلى صمتى ، فاقترب منى وأخذ كفّى بين يديه وهو يقول : لمَ تكتمها عنى . إن المحامين والأطباء قلّ أن ينجحوا فى عملهم مستقلين عما يعلمه أصحاب الحقوق والمرضى من قصادهم . على أن أسرارهم دائماً فى حرز مكين من صدورهم وقد أقسموا على ذلك قبل مباشرة مهنتهم

وعند ذلك ظللت صامتاً وقد تضمضمت نفسي وأنا لا أرتضي أن أتخذ من هذا السر الدفين مجازاً إلى إجابته . ولـكنه استمر في عتبه قائلا : كيف تصرّ على كتمان أمرك عني ؟ إنني الآن لم أعد طبيبك ، فقد انتهت مهمتي معك فلعلك تـكرمني باعتباري أخاً لك أو صديقاً . ثم اعلم أنني لن أقوى على المودة دون أن أقف على ما يعذبك لأن ما أصبحت فيه من سوء الحال مما يحزنني ويحزّ في قلبي . تكلم ياعزيزي ، تكلم بحق هذه العمة الطيبة الرحيمة .

وعند ذلك فاضت نفسي بالشجون ، وانهمر من عيني الدمع ، وأخذت أقص عليه ما رويته لك في هذه السطور وأنا أجيبه بأني لا أعلم من أمرها شيئاً لا اسمها ولا أسرتها ولا مكانها

ومن الغريب أنه بعد أن سمع عنها هذا البيان المبهم انبسطت أساريره وارتاحت نفسه . بل لقد كان يخيّل إليّ أنه يبتسم وهو يحاول ألا ألحظ ذلك . ولما انتهيت من حديثي قال : إن حادثتك هذه عجيبة ، ومع ذلك فقد وقع ما يشبهها لـكثيرين أعرف منهم شابة جميلة كاد يعصف بحياتها الحزن . ولـكنني أقنعتهـا بالـكف عن الجرى وراء أمل لا فائدة منه ، وقد سمعت لأرشادي فلم لا تضع نفسك في موضعها يا سيدي وهي فتاة ضعيفة وأنت شاب قوي ؟ ثم إن مثل هذا المرض النفساني وخيم العاقبة على من لا يكون قوي الإرادة ماضي العزم . وإني لأعرف أن لك مذهباً طالما كنت تعتزّ به وتنتصر له ، وهو أن لـكل إنسان لو شاء سلطاناً من نفسه على تصرفاته . وكثيراً ما كنت تحتج بهذا المذهب على إخوان لك ولي وإن كان الزمن واليأس الذي أنت فيه جعلاك تنساني وقاما سداً بين ذاكرتك وبيني

على أنني مع هذا سأضع لك نظاماً دقيقاً تتبعه في طعامك وشرابك ورياضتك وأرجو أن تـكون عند حسن ظني من قيامك عليه واتباعه . ومع ذلك فسأرسل إليك من الغد ممرضة في مستوصفي بل إنها رئيسة ممرضاته ، وليست إلا أختي وستحمل إليك تفصـيل هذا النظام ، فأكرر رجائي ألا تعارضني فيه . وعما قريب تعلم كيف أنني بفضل مساعدتها سأردّ باذن الله حياتك إليك من جديد . وعند ذلك انصرف فأرسل إلى في صباح اليوم التالي برقية حدد فيها موعد قيامها وساعة وصولها ، فأرسلت بعض أتباعي لانتظارها

وبعد ثلثي ساعة طرق أذني صوت جلبة في عرصة الدار فأدركت أنها أقبلت ، ولـكن عمتي أسرعت إليّ وأخذت تضرب كفاً على كف وتقول : كيف يا ولدي يرسل طبيبك بمثل هذه الممرضة ، وهي أولى بالتمريض منك لأنها لا تكاد تخطو من شدة ما هي فيه من الضعف والهزال ؟ وعند ذلك دخلت وهي تتحامل على نفسها مستندة إلى أحد الخدم حتى إذا وقفت على مقربة مني وحدقت في سقطت مغشياً عليها فأسرعت نحوها ورفعت رأسها بيدي فاذا بها ... تلك الصورة التي كانت تزين ذلك الإطار القديم ...

أما الآن فالحمد لله على ما استرجعنا من العافية وعلى ما كتب لنا من السعادة . وهاهي ذي وأنا أخط لك هذا إلى جانبي تنفذ نظراتي من عينيها إلى قلبها الذي أصبح محراب حبي ، وما كانت من قبل لتنفذ إلى حجرتها من تلك النافذة .

محمود ضيرت

حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موير
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

مقدمة المؤلف

يا قارئي العزيز :

لو أنك قرأت روايتي «حاجي بابا في اصفهان» لوجدتني فيها قد عاهدت القراء على ألاّ أعود إلى الكتابة مالم أجد تشجيعاً . فإن وجدتُ هذا التشجيع وصفت له حياة « حاجي بابا » بعد سفره إلى انكلترا سكرتيراً للسفارة الفارسية

هذا ما عاهدت عليه . ولكنني بهذا العهد وضعت نفسي أمام مشكلة لا أعرف كيف يكون حلها لأني والحق أقول لا أعرف ما هو التشجيع ، وإنما هي كلمة تورطت فيها . فإذا كان التشجيع هو ثناء الصحف فإن الأكاذيب لا تشجع ؛ وإن كانت إشارة المجلات فهي لا تتناول الكتب وإنما تتلمس من عنواناتها موضوعات تكتب عنها وليس لها بالكتب علاقة ؛ وإن كان التشجيع من القراء فإني أعترف لك أن معظم القراء في انكلترا يشترون الكتب ولا يقرأونها ، والطبعة الأولى من كل كتاب ستباع ، صالحاً كان أو غير صالح . ولا يستطيع المؤلف أن يعرف أهل نجح كتابه أم لم ينجح ، ولو أن آلافاً من النسخ قد بيعت منه

ولما كانت هذه هي الحالة فاني كما يقول «حاجي بابا» وضعت ذراعي البلادة على صدر الاهمال ولم أتمم القصة . بل عنيت أن أقول إني لم أترجمها إلى الانكليزية . لأن أصلها الفارسي كما تعلم موضوع بقلم حاجي بابا . وإن لم توجد منه نسخة غير التي عندي ... ثم طرأت عليّ أعذار خاصة اضطررت معها إلى عبور المحيط إلى أمريكا . وهناك كدت أنسى كل شيء في العالم القديم

ولما عدت إلى انكلترا وجدت خطاباً ورد عليّ من فارس من موظف كبير فيها ، فعادت إلى ذهني الذكريات الآسيوية . ولما فضضت الكتاب وقرأته لم أتمالك نفسي من الصياح : « هذا هو التشجيع ! إن هذا الخطاب القصير أكثر تشجيعاً لي على الاستمرار في كتاب « حاجي بابا » من أي مشجع آخر . وسأتلو عليك هذا الكتاب ثم أخبرك لماذا رأيته مشجعاً . وقد كان الكتاب باللغة الانكليزية وبهذا الأسلوب الغريب :

صديقي العزيز :

أنا غضبان عليك ، وليس غضبي بغير سبب . لماذا وضعت كتاب حاجي بابا يا سيدي ؟

الشاه غضبان عليك ، وقد حلفت له أنك لم تكتب هذه الأكاذيب ولكنه قال : بل كتب

كل الناس غضاب عليك . إن الكتاب كله أكاذيب فمن أخبرك بها يا سيدي ؟ لماذا لم تسألني ؟ هذا سيء جداً منك

تقول إن الشعب الفارسي قد يكون كذلك ولكن الشعب الفارسي لم يسيء إليك ، فلماذا تنتقمه

بتلك الصفات سواء أكانت فيه أم لم تكن فيه ؟ ولقد أرسل الشيخ عبد الرسول خطاباً طويلا إلى الشاه يذكر له فيه أنك تحدثت فى الكتاب عن مقتل زوجة الشاه ، فلما سألنى جلالته عن ذلك حلفت له أن الشيخ عبد الرسول رجل كذاب . ولقد علمت أنك أسميتنى فى كتابك باسم « ميرزا فيروز » وأنك طعنت فىّ . علمت ذلك وأنك وصفت كلامى بالسخف ، فمتى كان كلامى سخيفاً يا سيدي ؟ أنت تظن أن كتابك يدل على حذق ، ولكن الواقع أن كتاب حاجى بابا عمل فى نهاية الحماقة . وأعتقد أنك أسفت على تأليفه

الانكليز يقولون إنه كتاب عظيم ، ولكننى أري أنه ليس عظيماً . وأنا صديقك القديم فلا بد أن تكون حانقاً على جدًّا لمصارحتى إياك برأيى ، ولكنى مخلص فى صداقتى . وأرجوك أن تضع رواية أخري تمدح فيها الفارسيين ؛ وسيبرر كتابك هذا أعمالى المكررة أمام الشاة بأنك لم تضع كتاب حاجى بابا

أرجو عدم المؤاخذة . فأنا لا أعرف كيف أنافق ، ولغتى دائماً هى اللغة البسيطة وأنا صديقك المخلص ... ولكن لماذا كتبت عنى ؟ الله أعلم !

حاشية :

« اشتريت منزلاً جديداً يا سيدى وأنا الآن أحسن كثيراً مما كنت تعرفني . ويقول الإنكليز إن أمريكا مملوءة بالفضة والذهب وإنك غنى جدًّا . وأنا أحب الزهور الانكليزية لأغرسها فى حديقة منزلى الجديد ، وقد أخذ الشاه كل أوانى الخزف التى كانت عندي ؛ وبما أنك كتبت سخافات كثيرة عن « ميرزا فيروز » فابعث إلىّ ببذور بعض الزهور لأنى دافعت عنك أمام الشاه وحلفت باطلاً ، وإذا أرسلت لى بعض الأصص الغالية كان ذلك جميلاً منك »

التوقيع

ولقد تسألنى أيها القارئ لماذا أجد التشجيع فى خطاب مثل هذا . ولقد تظن أنى كالرجل الذى أراد أن يعرض جواده للمبيع فأخذ يصفه بأحسن صفات الخيل ، ولكن الجواد رمحه أمام المشترين فلم يخجل من ذلك بل قال إن جوادى يحب المداعبة

لكننى أؤكد أننى لست مثل هذا الرجل ، وأؤكد أن فى الخطاب تشجيعاً كثيراً . ذلك لأنه يدل على أن كتابى أثر تأثيراً كبيراً فى شعب حى كالشعب الفارسى . وقد يكون هذا التأثير حافزاً له على التفكير . وأنت إذا أصبت الفارسى فى كبريائه فإنك تصيبه فى أقدس شىء لديه . حاول أن تسخر من فارسى ثم انظر إلى حد يصل به الغضب إليه ، لكن التفكير يحيل تلك الخلة إلى دأب على محاولة الاصلاح . فإذا ما استطعت أن تبين للشعب الفارسى عيوبه فإنه لا يلبث أن يصلحها ويحيلها إلى محاسن ، بعكس الشعوب الخانعة التى تعرف أن بعض صفاتها معيب ولكنها ترضى بها على أنها كذلك ... ولقد حاولت فى الصحائف التالية أن أبين أوجه التناقض بين الفارسيين اليوم وبين الشعوب المتحضرة . وفى رأيى أن المواهب الطبيعية فى الفارسيين لا تنقص شيئاً عن مواهب أرقي الأمم ؛ فأجسامهم حى ، وذكاؤهم متوقد ، وأنفسهم عالية ، وهم أهل شجاعة ونخوة ، ولكنهم — على الرغم من كل هذه المحاسن — فى نهاية الجهل . فإذا وجدت فيهم حكومة صالحة تعنى بالتعليم صاروا كما كانوا فى وقت من الأوقات من أكبر الأمم . ولقد حرصت على محاكاة لغة صديقى فكتبت إليه الرد الآتى :

لندن فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٢٦

صديقى العزيز :

تسلمت خطابك وأرجو ألا يقصر الله ظلك . أما عن كتابى « حاجى بابا » فلماذا لم تقرأه يا سيدى قبل أن ترسل إلى خطابك ؟

إن الشيخ عبد الرسول كذاب كبير وغبى جداً ، ولكنك « ما شاء الله ! » ... ولكنك رجل ماهرياسيدي . فأنت وزير وأنت تعرف القراءة والكتابة ياسيدى ، وأنت تقول إن كتاب «حاجى بابا » كله كذب . نعم كذب ، وكذلك كتاب « ألف ليلة وليلة » وجميع الكتب الروائية فى فارس وفى غيرها . لماذا تغضب على إذن يا سيدى ؟ تقول إن الشعب الفارسى لم يسئ إلىّ ... نعم فانهم لم يقتلونى ولم يعتدوا على دينى وهذا حسن ، ولكن هل هذا هو كل شىء بينى وبينهم ؟

وتقول : إنك صديقى وإنك كذبت على الشاه وحلفت على الكذب ، وهذا حسن جداً ياسيدى ؛ ولكنك قلت شيئاً غير لطيف : قلت : إن أمريكا مملوءة بالذهب والفضة وإنى من أجل ذلك يجب أن أكون غنياً . لماذا يا سيدى ؟ أيلزم بالضرورة أن تكون أنت غنياً لأن الشاه غنى ؟ هذا غير لطيف يا سيدى وأنت وزير كبير وعندك قصر جديد ، ولكنك مع كل حال فى حاجة إلى بذور للزهر لغرسها فى حديقتك فسأبعث إليك بها وبالأخص إذا ما حلفت مرة أخرى أمام الشاه من أجلى

أرجو الصفح فانى لا أعرف كيف أنافق ولكنى أتكلم فى صراحة . لماذا كتبت إلىّ هذا الخطاب وأنا صديقك القديم ؟ الله أعلم !

حاشية :

عندى الآن زوجة ياسيدى وعندى أولادوأنت وزير كبير وعندك ذهب وفضة ، وبما أنك كتبت لى خطاباً سخيفاً وقلت : إنى أكذب فابعث إلىّ بذهب وفضة ؛ وإذا أرسلت لزوجتى وأولادى بعض شيلان كشمير كان ذلك جميلا

جيمز مور

عزمت بعد ذلك على إتمام القصة على لسان « حاجى بابا » أو بالحرى عزمت على ترجمة ما كتبه « حاجى بابا » باللغة الفارسية فى وصف إقامته فى انكلترا وحرصت على روحه وأسلوبه . ولدى القارئ صورة واضحة فى خطاب ميرزا فيروز تبين شخصيته ولكن هذه الصورة ستزيد وضوحاً بما سيعلم عنه فى أثناء القصة ، ولست متحيزاً للانكليز ولا مضطغناً على الفارسيين ؛ وسأكتفى ببيان أوجه التناقض على حقيقتها وللقارئ حكمه ، ولن أطيل إلا حيث تدعو الحاجة إلى ذلك لأن شر ما أخشاه ويخشاه الكاتب أن يراه القارئ مطيلاً مملاً ، وكل رجائى إليكم أيها القراء الأعزاء إن رأيتم أنى أطلت فى بعض المواقف أن تذكروا أنى مضطر إلى الاطالة

الفصل الأول

حاجى بابا يجمع الهدايا من اصفهان

أرسلنى الشاه إلى أصفهان مبعوثاً من قبله لأجمع من أهالى المدينة الهدايا التى سيبعث بها جلالته معي إلى إنكلترا بعد أن صدرت إرادته بتعيينى سكرتيراً فى لندن للسفارة التى تعين فيها فيروز خان سفيراً ووزيراً مفوضاً ومندوباً سامياً لجلالته

وأصفهان هذه هى مدينتى التى نشأت فيها ابن

حلاق وفارقتهـا فقيراً معدماً ولـكننى أعود إليها الآن رجلاً عظيم الأهمية

ودخلت شامخ الأنف أنظر فى كبرياء وعظمة إلى أهلها كأنهم تماثيل من الأحجار . ومن حسن حظى أن أمي وزوجها فقيه المكتّب كانا قد بارحا المدينة ، وأقاما فى قرية بعيدة عند سفح الجبل . أما صديق القديم «على محمد» بواب الخان الذى لو كان حياً لصحبنى فى كل مكان ولنمنى بمرافقته إيَّاى من إظهار الكبرياء ، فانه قد مات عليه رحمة الله

وكنت أتجنب السير فى الطريق الذى كان فيه حانوت أبى الحلاق فى أيام طفولتى حتى لا يرانى أحد جيرانه القدماء . ولم أمر كذلك فى الطريق الذى كان فيه منزلنا القديم

وكان حاكم المدينة يجهل أصلى فاحترمني من أجل المهمة التى بعثت بها ولم ينقص من احترامه شيئاً . وكانت المهمة سامية جداً لأنى أمثل الشاه ولأنه خول لى أن آخذ ما أشاء من أى إنسان وأدرجه فى قائمة الهدايا . وكنت أقول في نفسى : « أنت سعيد يا درحاجى بابا » ولا بد أن يكون الكوكب الذى ولدت ساعة بلوغه الأوج هو أسعد كوكب فى السماء ، فان ذقون أهل أصفهان وأهل شيراز أصبحت كلها فى يدى ، ولى أن أختار أية لحية فأنتف من شعراتها ما أشاء . ولـكن تجاربى الماضية جعلتنى أضع بدالحكمة على ظهر الاعتدال . ولا يفوتنى أن أذكر أن لقبى الرسمى أصبح « عالى الجاه » أى صاحب الجاه العالي . وهذا اللقب مطمح أنظار الفارسيين فلا يوجد فارسي لا يتمنى أن يناله ، ولـكننى مع ذلك فضلت أن يلقبنى الناس باللقب السابق وهو « عالي الشأن » وهو لقبى قبل الحصول على رتبة « بك » وتعيينى سكرتيراً فى السفارة

وما زلت حريصاً على التأدب فى مخاطبة الناس فلا أقول لإنسان «أنت» بل «أقول أنتم» ولا أقول لزائرى « اجلس » بل أقول « أرجو أن تشرفنى بمجالستك » ومع أنى كنت راغباً فى ألا أغير هذه اللغة فإنى ما كنت أستطيع تغييرها لو أردت لأنى اعتدتها . ولأن الكلمات اللطيفة كانت أحلى في أذنى من الأنغام

وكان مىي أمر من الشاه يبين حدود مهمتى . وفيه أن حاجى بابا لمـا هو معهود فيه من الحكمة وسداد الرأى قد كلف من قبلنا بجمع رؤوس من العبيد والإماء لإرسالهـا هدية منا إلى شاه بلاد الفرنجستان . وليكن هؤلاء العبيد والإماء ممتازين بصفات خاصة حاذقين فى مختلف الفنون أقوياء ليرى فيهم هذا الملك الـكافر مثالاً حسناً من عبيدنا

وعهدنا إلى « حاجى بابا » بأن يجمع رؤوساً من الخيول العربيـة والتركمانية لإرسالهـا إلى شاه الفرنجستان أيضاً ليعجب رعاياه الـكفار بما فى بلادنا مما لا نظير له عندهم ، وليكن فى جملة ذلك مهرة أصيلة لتلد فى بلاده سلالة من الخيول الشرقية ، ويكون ذلك برهاناً على حسن صداقتنا

وعلى « حاجى بابا » أن يجمع ما يليق بجاهنا الشاهاني ، ونحن ملك الملوك ، ما يستطيع جمعه من المنسوجات الحريرية ومن القطيفة ومن مصنوعات يزد وقاشان ما يدل على أنه لا يوجد فى العالم ذوق سليم مثل ذوق رعيتى ، ولـكى ينسج عباد عيسى على منوال ما ننسجه نحن فيحفظوا لنا جميل تعليمهم . وليكن بعض تلك المنسوجات للرجال والبعض نسائياً ليكسو ملك الفرنجستان زوجاته وحظيه بما

لم يحلم بمثله . ولكن مع هذه الأقمشة بعض الأحجار الكريمة ومقدار وافر من الحناء والكحل والأقراط والأساور والدبابيس والمناطق والخواتم واللآلئ اللائقة بأن تهدى إلى ملك أجنبي من الملوك ؛ فلا تستعلوا شيئاً من هذه اللآلئ ولو أرسلتم كل ما فى البحرين

وعليه أن يجمع الزمرد والعقيق والزبرجد ليتعوذ ملك الفرنسجتان بالتحلي بذلك من كل عين شريرة ، وليجمع فوق ذلك كل ما اشتهرت به فارس من الدروع والسيوف ونماذج الخطوط الجميلة والصور والتماثيل ، والطلاسم التى تطرد الشياطين . وبالجملة كل ما يفرح به المهدى إليه ويليق بمكانة المهدى

الفصل الثانى

« حاجى بابا » يصف جمعه للهدايا

عرضت هذا التفويض على حاكم المدينة فوجم ولكنه لم يستطع أن ينطق بحرف . وحاكم المدينة هذا هو ابن وزير المالية ، وقد أدهشه أن يكلف بهذه المهمة أحد غيره وأن يكون التكليف من غير أبيه

ولما كان رئيس الوزارة عدواً لأبيه وله فقد ظن الحاكم أن هذه إهانة متعمدة . ولما قلت له إننا نريد البدء بالعمل قال : « كيف نتمكن من جمع كل هذا ؟ إن أهل المدينة فقراء ، والذى تطلبه لا يوجد فى مدينة واحدة من مدن العالم »

فقلت : « لو كان الرأى لى وحدى فإنى أقل من التراب . ولكن مى أمر الشاه وأمره يجب أن ينفذ بغير مناقشة »

قال الحاكم : « هــذا ما لست أشك فيه يا « حاجى بابا » ولكن اصفهان ليست بلاد النوبة فكيف نأتى بالرقيق ؟ وليست مثل نجد فمن أين لنا بالجياد ؟ وكذلك لسنا فى بلاد البحرين فأين هى الجواهر ؟ ولسنا فى خراسان فكيف نحصل على الحرير ؟ »

لما سمعت هذا القول من الحاكم عرفت ما الذى يريده لأني أعرف الفارسيين وأعرف كيف تنشأ المصاعب وما وسائل تذليلها بينهم . فهمست فى أذنه بأنى لست بالرجل الذى يريد الاستئثار بالنفع وأنى سأقاسمه ما يزيد على الحاجة . فما كدت أنطق بذلك حتى ابتسم وتلاشت المصاعب .

وفى ساعات قلائل كان القصر مملوءاً بالعبيد والإماء والحرير والشيلان والسجاجيد ؛ وجاء التجار من كل مكان يقدمون لنا خاضعين أحسن ما عندهم

ولكثرة المعروض من الرقيق ، ولأنى عضو فى السفارة رأيت أن أختار ما ليس له شبيه فى مزاياه لأنى مسؤول عن روعة الهدية . فاخترت الجواري من الشركسيات الموجودات فى أرقى بيوت اصفهان لتكون لهن قيمة فى حريم شاه الانكليز . وكان بينهن حبشية واحدة امتازت بخفة نومها ؛ وإذا نامت فإنها تبقى مفتوحة العينين ؛ وقلت إن الشاه الانكليزي سيسر بها سروراً كبيراً لأنها تنام عند بابه فتحميه من دسائس الحريم . وكان من مزاياها أيضاً أنها ليس لها غطيط فهى لا تزعجه فى نومه

وكان من بين الجوارى أيضاً واحدة تحسن الطهى حتى لقد سمعت أن الذى يتعود الأكل مما تطبخه يعيش ضعف العمر المعتاد . وهل يريد الملوك أكثر من التمتع بطول العمر مع جودة الأكل

أما العبيد فكان بينهم زنجى قوى جداً لا يغلبه أى إنسان فى المصارعة فهو يستطيع أن يحمل رجلاً

ويلق به على مسافة طويلة كما يفعل غيره بسلمة خفيفة ، فهو يأكل كبشاً كاملاً فى الوجبة الواحدة

وأما إماء الحرم فقد اخترت منهن اللآلىء الساحرات العيون الوافيات الأجسام . ولما لم يكف من تتوافر فيهن شرائط الجمال فى أصفهان فقد جئت بأجمل الجميلات فى شيراز ، وجمعت بعد ذلك من الجواهر والثياب ومختلف الأصناف أحسن ما هو موجود فيها وعنيت عناية خاصة بالثياب والجوهرات التى ستهدى للملكة الفرنجستان ؛ ومنها البراقع المحلاة بالذهب والحبرات وأقراط الأنف والكحل والأصباغ للشفتين والخدين والعنبر ليوضع منه على الخد شكل الخال

واخترت فتى جميلاً من الخصيان الشركسيين لتكون الملكة فى حراسته « أغا » وهو قوى ماكر لاتستطيع الملكة أن تفلت من رقابته سواء أكانت من الشياطين أم من الملائكة

وقبل عودتى إلى طهران اقتسمت مع الحاكم ما زاد على الحاجة ؛ وخصصت جانباً لأهديه إلى رئيس الوزارة وخبأت ما جملته من نصيبي بين أمتعتى وآليت ألا أطلع أحداً على هذا السر

الفصل الثالث

سفير انكلترا يعترض على الهدايا

وصلت سالماً إلى العاصمة والهدايا محملة على البغال والجوارى على الهوادج فوق ظهور الخيل والعبيد يمشون حول موكبي ، فقصدت توّاً إلى منزل رئيس الوزارة ، وفى أقل من لحظة صدر لى الإذن بمقابلته فقدمت له النصيب الذى استخلصته من الهدايا ، وأقسمت أنى لم أحتفظ لنفسى بشىء . ويعلم الله أنى كنت أضحك بهذا القول على لحيته . ثم عرضت عليه الهدايا التى جمعت لإرسالها لشاه الفرنجستان

فسُرَّ رئيس الوزارة وقال لى : أنت ياحاجى بابا جدير بالثقة ، ولكن ليس معنا الآن أحد فى هذا المكان وأريد أن أنبهك إلى أن « فيروز خان » الذى سيكون سفيراً ورئيساً لك يحسدك على قيامك بهذه المهمة التى كان يريد أن يكلفه الشاه بها لينفذها بنفسه أو ليرسل أحد أتباعه ، فاحذر من عداوته لك وأخبرنى بأعماله عند ما تصلون إلى الفرنجستان

وأخبرنى رئيس الوزارة أنه تحادث مع سفير انكلترا عن الغرض الذى أرسلت من أجله ، وأن هذا السفير المعين حديثاً أبدى رغبته فى رؤية الهدايا قبل إرسالها ، وقبل أن يكتب الخطابات التى سترسل على لسان الشاه ووزرائه إلى انكلترا ، لأنه ليس فى الحكومة الفارسية من يعرف اللغة الانكليزية ، كما قبل أن يأتى لنا بمترجم انكليزى يعرف اللغة الفارسية لكى يكون مترجماً للسفارة الفارسية فى لندن

دُعِىَ السفير بعد عودتى إلى زيارة الشاه ليرى الهدايا ، وحضر هذه الحفلة « ميرزا فيروز » الذى تعين سفيراً ، وقد كان كلا السفيرين لايعرف ما هي هذه الهدايا قبل أن تعرض عليهما

اجتمع الوزراء والسفيران فى « الديوان خانه » وهى قاعة الاستقبال فى قصر الشاه ، وقد زينت القاعة فى هذا اليوم كأحسن ما تكون الزينة وحليت النافورة بالأزهار وأديرت فكانت مياهها تتناثر على الزهر كالدموع على خدود الحسان . ثم أديرت الفواكه والمثلجات وأمرنى رئيس الوزارة بعرض الهدايا فجئت بالجوارى والعبيد وبالخصيان وعرضتهم

فوقف السفير الانكليزى مندهشاً وقال: «ماهؤلاء؟ إن الانجليز لا يقبلون الرقيق في بلادهم »

قال رئيس الوزارة فى هدوء : « ما هذا القول يا فخامة السفير ؟ أليس عندكم عبيد ؟ كيف إذن تقومون بالأعمال ؟ »

قال السفير : « إن كل من فى بلادنا أحرار وكل من يدخلها يصير حراً »

فقال رئيس الوزارة : « ولكن هذه الهدايا للشاه الانكليزى نفسه ؛ وإذا لم يكن مسموحاً فى بلادكم لأى فرد بامتلاك العبيد فلا يمكن أن يكون شاهكم كسائر الأفراد . من الذى يطبخ له ؟ ومن الذى يدخل معه الحمام ؟ ومن الذى يحرسه حين ينام ؟ أليس هذا من عمل الرقيق ؟ »

قال السفير : « ليس لملكنا الحق فى امتلاك الرقيق ، فهو فى ذلك كأى فرد من رعاياه ، وهو يستأجر من يخدمونه والملك نفسه من أشد الناس عداوة للرقيق فهو لا يكتفى بمنعه فى بلاده ولكنه يستعمل نفوذه وقوة دولته فى منعه من البلاد الأخرى »

فتح الوزير عينيه وفمه وقال وهو شديد الدهشة : « أظن النشوة لا تصل بكم إلى هذا الحد . كيف تمنعون الرقيق ، وكيف يعيش هؤلاء المساكين إذا حررناهم ؟ إنهم لا يستحسنون سعادة أكبر من بقائهم معنا . فاذا تركناهم فانهم يموتون جوعاً ، وهم أبناؤنا وأجزاء من عائلاتنا »

قال السفير الانكليزى : « ولكنكم تستطيعون قتلهم » فقال رئيس الوزارة : « أين هو الأحمق الذى يحرق منزله بيده ؟ كيف نقتلهم ونخسر ثمنهم؟ »

قال السفير : « مهما تكن الحال فإنكم تستطيعون ضربهم ولا مسئولية على أحدكم فى ذلك »

فقال رئيس الوزارة : « ومن الذي يمنعنا عن ضرب الخادم ولو لم يكن رقيقاً ؟ إن كل إنسان معرض للضرب ممن هو أكبر منه إلا جلالة الشاه حماه الله . فالشاه يضرب الوزير ، والوزير يضرب الموظف ، والموظف يضرب الناس »

ولما رأيت أن مجادلة السفير على هذه الطريقة لا تؤدى إلى إقناعه تلطفت وقلت له متواضعاً : « ولكنك يا فخامة السفير لم تعرف بعد مزايا هؤلاء الأرقاء ؛ فإحدى الجوارى تحرس باب الملك عند نومه حتى لا تخونه نساؤه الأخريات ، والأخرى تطيل عمره بجودة ما تطبخه »

فقال السفير : « إن الأحوال فى بلادنا تختلف عن الأحوال فى بلادكم ، فإن الشاه الانكليزى ينام هادئ البال كأي فرد من رعاياه ، ولا يخاف من الاعتداء عليه وهو نائم ، وهو يأكل من أى طعام ، ولا يخاف من أن يدس له السم فيه ، وهو يثق بطباخه كما يثق برئيس وزرائه »

قلت : « وهـذا الزنجي يا فخامة الوزير مثل « اسفانديار » فجسمه من النحاس وذراعاه من الحديد ، ولا شك أنكم لا ترفضونه فهو ضرورى جداً فى حاشية شاهكم »

فقال السفير : « إن عندنا مصارعين من جنسنا ، ولكنهم إذا سلبوا حريتهم فقدوا قوتهم . إننا لا نقبل الرقيق بحال من الأحوال »

عند ذلك هتفنا جميعاً : « هذا عجيب جداً ! »

وانزعج ميرزا فيروز من احتمال سفره بلا هدايا . وقد كنا نعتقد أن نجاحنا فى لندن يتوقف على قيمة الهدية التي نهديها كما هي الحال عندنا

وقال الوزير : « وعلى كل حال فأظنكم لا

ترفضون هذا الخصي الشركسي فهو لا يقدر بثمن»

فقال السفير : « إنني لا أعرف مهمته فما هي ؟ »

قال الوزير : « إن للملك زوجات وجواريَ كثيرات وهن بالطبع في حاجة إلى مراقب أمين ، لأن المرأة لا تستطيع الخروج من المنزل إلا تحت مراقبة أحد من أتباع زوجها فالنساء غير مأمونات ولا محل للثقة بهن »

فأدهشنا السفير عند ما أجاب بقوله : « ليس للملك عندنا إلا زوجة واحدة وجميع الرعايا يراقبون حسن سلوكها لأنها ملكة وليست في حاجة إلى خصي »

صحنا جميعاً : « لا إله إلا الله ! هذا غريب جداً ! » وقال رئيس الوزارة : « وكيف يكون ملكا وله زوجة واحدة ؟ وما هي الفائدة إذن من كونه ملكا ؟ ما الذي يفعله شاهكم إذا ملَّ من زوجته ؟ »

فقال السفير : « إن الجواب على هذه النقطة بعيد عن فهمكم لاختلاف عاداتنا وعاداتكم . إن المرأة عندنا مثل الرجل في حقوقها وفي احترامها وقد تولي الملك عندنا كثير من النساء »

فكر رئيس الوزارة ثم قال : « هذا غريب جداً ! إن عاداتنا تخالف عاداتكم مخالفة كبيرة فالنساء عندنا في حكم العدم ، ونحن لا نثق بهن ونعتقد أن المرأة لم تخلق إلا لقضاء حاجة الرجل ونحن لا نفهم خضوع الرجال لحكم المرأة إلا كما تفهمون خضوع النمور للنعاج »

وقال فيروز خان : « إذا لم يكن للشاه الانكليزي غير زوجة واحدة ، فلديه بلا شك نساء كثيرات لحفظ ثيابه وللرقص والغناء ولقص النوادر ولمراقبته عند نومه ولخدمة زوجته وتربية أولاده ، وكل هذا العدد من النساء في حاجة إلى خصي لأننا لا نفهم أن جميع النساء في بلادكم يختلفن عن نساء بلادنا فلا تكون لكم حاجة بمن يتجسس عليهن ... فقال السفير : « مهما بدا لكم غريباً فان هذا هو الواقع . وليس على نسائنا رقابة ، ومع كل ما للملك من السطوة فانه لا يستطيع إخضاع امرأة لرقابته أو منعها من الخروج من المنزل أو مقابلة الناس . ولو فعل ذلك لكان حكمه حكم من يعاقب الغير بغير محاكمة ، وقوانيننا تمنع ذلك . ومن المستحيل أن يكون في بلادنا من يتجسس على المرأة لزوجها . ثم أريد أن أعرف من أين تأتون بهؤلاء الخصيان ؟ »

فقال رئيس الوزارة : هل تظن أننا نأتي بأناس يخلقون كذلك ؟ كلا فان كل موظف مغضوب عليه أو كل أسير حرب نفعل به كذلك »

انزعج السفير الانكليزي من هذا القول أيما إنزعاج وأصر على ألاّ يقبل الخصيان في بلاده

وكان الشاه يسمع ذلك ولا يتكلم ، وقد بدا على وجهه الغضب لرفض جانب من الهدايا . وفي ذلك مالا يدل على حسن النية ، لأننا نحن الفرس نرى رفض الهدية من أكبر علامات الاحتقار ، وهو بين الملوك من بوادر الحرب . لكن لما عرضنا على السفير الانكليزي قبول الجياد وافق وأبدى علائم الشكر والسرور . وكذلك قبل السيوف والدروع ومنها سيف « تيمورلنك » وآخر لنادرشاه وهو الذي كان معه لما فتح مدينة « دلهي » وخوذة جميلة للشاه اسماعيل ، وقميص طرز بآية من القرآن كان لمحمد شاه

قال الشاه للسفير الانكليزى : « اكتب لأخى ملك الانكليز بأن يضع القميص تحت ثيابه كلما خرج إلى الحرب فإنه يضمن له النصر فى كل موقعة »

وقبل السفير كذلك مع الشكر أن نبعث إلى ملكه بالمنسوجات الحريرية والشيلان والسجاجيد والجواهر والمصوغات والهدايا المرسلة باسم الملكة ؛ وقد ابتسم عند رؤيتها وقال إن جلالتها ستسر بما أهدى إليها وإن كان من المستحيل أن تلبس شيئاً من ذلك »

ولما تم الاتفاق على ما يرسل وما لا يرسل عاد السفير بعد شكره للشاه وتركنا نعرب عن دهشتنا لغرابة أهل البلاد التى يسكنها هؤلاء الفرنجة

الفصل الرابع

خطاب من كبيرة زوجات الشاه الى ملكة انكلترا

كان من أهم الأمور التى يجب قضاؤها قبل سفرنا أن نكتب خطابات إلى شاه الفرنجستان ووزرائه كالتي وصلت إلينا عندما جاء سفير انكلترا إلى طهران — الخطابات التى ترجمها لنا السفير ولكننا لم نعجب بانشائها ولا بخطها ، ويظهر أن الانكليز ليس عندهم ذوق فى الانشاء . ولقد أدهشنا وحيرنا شكل ختم به على غلاف الخطاب الانكليزى للشاه ، لأن عليه رسم رجل على ظهر جواد يقتل حيواناً مفترساً . ولقد جمعنا العلماء ليفسروا لنا هذا اللغز فكان جوابهم بالظن أن هذا الرسم يمثل بطل التاريخ الفارسى « رستم » يقتل الشيطان الأبيض ؛ ولكننا لما سألنا فيما بعد من أحد الفرنجة قال : إن هذا الرجل عظيم من كبار الدراويش الانكليز اسمه « القديس جورجيو » وأنه يقتل وحشاً يهاجم شاه الفرنجستان . وهذا الرسم معناه أن بلادهم آمنة . وقد كان مثل هذا الرسم على شريط من الحرير فى أسفل الخطاب الذي بداخل الغلاف ؛ وكان وضع هذا الخاتم فى أسفل الخطاب سبباً فى مناقشة حادة بين السفير الإنكليزى وبين رئيس الوزارة لأن الأخير رأي أن وضعه كذلك يعد اعترافاً من ملك الانكليز بأنه أصغر من شاهنا ملك الملوك . وقد ظهر لنا من هذه المناقشة أن هذا الملك يعتبر نفسه أكبر من كافة الملوك حتى الشاه الفارسى نفسه

ولما جاء دور الكلام على الخطاب الذى سنرسله إلى ملك الانكليز قال رئيس الوزارة : إننا سنضع خاتم الشاه فوق العنوان فرفض السفير ذلك ونحن رفضنا أن نضع الخاتم فى ذيل الخطاب ، ثم تم الاتفاق على أن يكون العنوان وخاتم الشاه فى سطر واحد

وأمر الشاه باحضار أكبر المنشئين وأكبر الكتاب لإنشاء الخطاب وتسطيره بخط جميل ، ثم يترجم السفير الانكليزى الخطاب ، وترسل الترجمة مع الأصل لجمال خطه . وقد اختار المنشئون لهذا الخطاب زهرات اللغة التى تروق ويصعب فهمها على الرجل المادى ، ولكن تتناقلها الأفواه لجمالها . ولست أذكر من كل هذا الخطاب إلا الجملة الآتية

« عند ما تتعرض حديقة الأزهار التى أعوادها كلمات هذا الخطاب والتى روائحها معانيه ، ونسيمها الاخلاص المتجلى فيه — عندما تتعرض هذه الحديقة لنجمى عينيك المتألقين فى سماء وجهك ، وعندما يسطع عليها ضوء نفسك من هذين النجمين ، وعند ما تستنشق عبير هذا الاخلاص ، عند ذلك أتمنى أن

تكون على عرش الصحة متوجاً بالسعادة والرفاه »

هذه جمل من الخطاب البليغ . فكيف يفهم عقل الرجل العادى أن معنى هذه الكلمات هو :

« عند ما يصل إليك خطابى أرجو أن تكون فى صحة جيدة »

بقى خطاب كبيرة زوجات الشاه إلى ملكة انكلترا رداً على خطابها . ولقد كانت هذه الملكة تجهل عوائدنا فلقبت زوجة الشاه بلقب ملكة إيران وأهدتها صورتها فى إطار محلى بالجواهر

وبالرغم من أن زوجة الشاه ذات نفوذ فى القصر فإنه ليس لها أقل نفوذ فى الدولة . وللشاه أن يقتلها ويأتى بغيرها دون أن يشعر بذلك أي إنسان . ولكنه كان من الضرورى على كل حال أن يصل إلي ملكة الفرنجستان رد على خطابها

وبعد أن حاول كتبة القصر أن يضعوا نص هذا الخطـاب جيء بمنشيء الدولة لوضع الصيغة النهائية ، وهذا هو نص الخطاب :

« أدعو لجلالتك دعاء طاهراً كعرض مريم العذراء البريء من كل تهمة . وسلامى إليك كشهادة عيسى لأمه . وبعد فيا لؤلؤة الجمال المكنونة فى أصداف العظمة ، ويا كوكب العقل المتجلى فى سماء الحكمة ، أطال الله ظلك ، وأكد روابط المودة بين بلادنا وبلادك بحق جبريل عليه السلام ، وعطر علاقتنا بروائح الاخلاص

وقد كان تبادل السفراء سبباً فى فتح باب الصداقة على مصراعيه فلتغنِّ بلابل الأقلام ، على أعواد الحب والوئام ، ولتنبت زهرات العطف على أغصان الصداقة والسلام » .

« البقية فى العدد الآتى » عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

قرش
٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد
٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

« طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ »